عبد الرزاق نوفل

الإسلام

والعلم الحديث

الإسلام وَالعِلم الحديث

الإسلام والعلم الحديث

تأليف

عبد الرزّاق نوفل

الطبعة الأولى

رمضان ١٣٧٧ – أبريل ١٩٥٨



دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ حسن مأمون
مفتى الديار المصرية

كان من حظى أن أرسل إلى الأستاذ عبد الرزاق نوفل نسخة من كتابه « الإسلام والعلم الحديث » قبل طبعه ، فقرأته ودرسته دراسة وافية كاملة وخرجت من قراءتى بهذه النتيجة : وهى أن المؤلف بعد أن انتهى من كتابه « الله والعلم الحديث » رأى أن يتبعه بهذا الكتاب لفائدة المسلمين وغيرهم ممن يودون أن يعرفوا حقائق هذا الدين . وقد أعجبنى أسلوبه السهل المتين الذى يروق الخاصة وييسر الانتفاع بالكتاب للعامة ، كما أعجبنى تنوع مباحثه وكثرة استشهاداته التى استشهد بها لتأييد نظرية — طالما أنكرها على الإسلام بعض خصومه — وهى أن الإسلام لا ينكر العلم ولا يخشى بحوث العلماء وأن مبادئه وتعاليمه لا تتعارض مع ما أثبته العلم الحديث بتجاربه ونظرياته .

ولم يكتف المؤلف بآيات الله البينات التى استشهد بها فى مواضعها

وأقام بها الحجة الواضحة على صدق النظرية التى جال فيها وصال بل أضاف إليها كثيراً من أحاديث الرسول الصحيحة وأقوال العلماء والباحثين الأجانب المنصفين الذين لا يتهمون فى شهاداتهم ، كما استند إلى آراء كثير من أطبائنا الإخصائيين الموثوق بعلمهم وطبهم وإلى آراء أطباء ذائعى الصيت من الغرب توافقوا كلهم ولم يختلفوا .

بدأ المؤلف كتابه بالبحث الأول الذى يعتبر مقدمة للكتاب ، وقد عنى فيه بدحض ما ذهب إليه الملحدون ومنكرو الأديان فأظهر فيه حاجة البشر إلى الأديان وحاجة العالم إلى الإسلام الذى أتم الله به رسالات رسله الذين أرسلهم لهداية الناس وفائدتهم .

ورد على ما اتهم به خصوم الإسلام رسول الإسلام رداً مفحماً وأفاض فى شرح نشأة الرسول ثم ألقى أضواء على الإسلام فى نواحيه المختلفة وبدأها بتعريف القارئ بالإسلام وضمنه بياناً وافياً للأغراض الاجتماعية ولنواحى الإصلاح التى قصد إليها الإسلام ثم أعقبه ببحث عن معجزة الرسول الكبرى وهى القرآن الكريم الذى ثبت إعجازه ولا يزال شاهداً على أنه فوق مستوى قدرة البشر وأنه كلام رب العالمين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد ضمن هذا البحث آراء بعض علماء الغرب فى القرآن وفى المبادئ الإنسانية العظيمة التى حواها هذا الكتاب السماوى الذى كتب الله له الخلود والبقاء وحفظه من التغيير والتبديل ليرجع إليه فى معرفة أحكام الله فى كل زمان ومكان .

ثم انتقل إلى شرح واف لمزايا الإسلام فأوضح أن الإسلام دين علم

وعمل ، ودين كرامة وتحرر ، ودين أدب وخلق ، ودين طهر وعفة ، ودين مساواة وعدالة وأخوة ، ودين قوة وسلام .

وشرح هذه النظريات شرحاً وافياً يرى فيها القارئ صورة صادقة للإسلام ليس فيها زيف ولا تضليل وليس فيها خيالات ولا أوهام بل يرى الحقيقة ماثلة أمامه .

ثم ختم الكتاب بالكلام عن عقائد الإسلام وتكاليفه فى ضوء العلم الحديث وبدأها بالركن الأول من أركان الإسلام وهو الإيمان بالله وأثره فى حياة الفرد وحياة الجماعة ثم تكلم عن باقى أركان الإسلام وهى الصلاة والصيام والزكاة والحج .

والقارئ للكتاب يلمس المجهود العظيم الذى عرض به المؤلف موضوعات بحثه ويفيد منه فائدة كبيرة .

فأقدم هذا الكتاب لقراء العربية وأرجو أن يترجم إلى اللغات الأخرى ليعم نفعه وأشكر للمؤلف ما بذل من جهد ، وأتمنى له حسن المثوبة من الله سبحانه وتعالى .

حسن مأمون

مفتى الديار المصرية

تمهيد

للدكاترة الأساتذة بكلية طب ومستشفى قصر العينى بجامعة القاهرة

عبد العزيز الشريف	إخصائى وأستاذ الأمراض الباطنية
يحيي طاهر	» » » العصبية
عز الدين عبد القادر	مدرس العقاقير بكلية الصيدلة

فى الوقت الذى بزغ فيه نور العلم ، وقامت دولة العلماء . . . ارتفعت بعض الأصوات فى كل مكان تشفق على الدين . . أى دين . . حيث تردد القول إن العلم والدين لا يتفقان، فأصدر الأستاذ عبد الرزاق نوفل كتابه الأول « الله والعلم الحديث » الذى اعتبر فتحاً جديداً . . فى العلم وفى الدين . . والذى أمكن به إثبات اتفاق الدين والعلم . . وكانت أول محاولة من نوعها لإثبات وجود الله بأدلة علمية . . .

ثم تتابعت النهضات العلمية ، وأطلقت الأجهزة التى سميت بالأقمار الصناعية ، وبدأ العالم يتطلع ببصره إلى الفضاء حيث الآيات الواضحات البينات على وجود الله . . . فخفتت أصوات عصبة الإلحاد وبدأت الدعوة إلى الرجوع لله تشق طريقها فى كل مكان من العالم . . .

وفى هذا الوقت الذى يبشر فيه ببدء عصر نهضة دينية . . . يصدر المؤلف كتاب « الإسلام والعلم الحديث » شيئاً جديداً . . فريداً . . فى العلم والدين . . وكما أن الكتاب الأول قد أثبت بالأدلة العلمية وجود الله وحقق اتفاق العلم والدين .. فقد أثبت كتابه الثانى نبوة سيد الخلق محمد ابن عبد الله صلوات الله عليه وتسليمه . . وحقق اتفاق العلم والإسلام .

لقد ضم كتاب « الإسلام والعلم الحديث » فصولا ممتعة لإثبات حاجة البشر إلى الأديان وتتابع هذه الأديان ، ثم أثبت حاجة العالم إلى الإسلام . . وأفرد فصولا للتعريف بالإسلام ونبى الإسلام ، ودحض بالأدلة العلمية التى لا تقبل الشك أو الجدل مفتريات أعداء الإسلام عن الرسول الذى كان هدفهم بعد أن أخفقوا فى إيجاد أى مطعن فى الإسلام . . كما حقق المؤلف فى كتابه إعجاز القرآن الكريم معجزة الرسول الأمين . . وأوضح الكتاب بعض المزايا التى جلاها التقدم العلمى فى العصر الحديث فإذا بالإسلام دين علم وعمل . . وكرامة وتحرر . . وأدب وخلق . . وطهر وعفة .. ومساواة وعدالة وأخوة ، ودين قوة وسلام .. وبذلك أمكن معرفة بعض الأسرار التى تحويها الآية الشريفة « إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ » .

وقد ناقش المؤلف ، العقائد والتكاليف الإسلامية فى ضوء العلم الحديث مناقشة تعتبر الأولى من نوعها . . . فأثبت بلغة العلم أن كل ما شرعه الإسلام من عقائد وتكاليف إنما هو لخير الفرد ومصلحة المجتمع .

فالإيمان بالله . . . أثبت أن فيه الوقاية من مختلف أمراض الجسم والنفس . . بل فيه الشفاء من أخطر أمراضها . . علاوة على ما يشمل المجتمع المؤمن بالله من خير وسعادة ورفاهية نتيجة الخوف من الله . . . فلا يأخذ فرد أكثر من حقه . . ولا يطمع شخص فيما يملكه غيره . . ويكون المجتمع بذلك مكوناً من أفراد متحابين . . متعاونين . . .

والصلاة . . والصيام .. أثبت أن فوائدهما الطبية مما أشاد بها الجميع حتى خصوم الإسلام . . بل إن الصيام اعتبر فى الطب الحديث وسيلة من وسائل العلاج التى يلجأ إليها الطبيب . . .

والزكاة . . . والحج — علاوة على ما لهما من تأثير طبى وقائى فى النفس — هما وقاية من أمراض خطيرة اجتماعية قد تودى بسلامة المجتمع نفسه . . كما أوضح المؤلف بعض ما هدف إليه الحج فى مختلف مناسكه . . فإذا بها تشير وفق ما يوصى به التقدم العلمى فى العصر الحديث . . .

والكتاب من ناحيته الموضوعية يعتبر كتاباً علمياً ، فقد ضم التفاسير العلمية لعدة أمراض والعلاج منها . . كما أنه كتاب دينى ، إذ شرح الفرائض الإسلامية ، والهدف منها بلغة العلم التجريبى ، فأوضح أن الإسلام دين للدنيا والآخرة . . وأن كل ما جاء به سيدنا محمد لا يمكن أن يكون من صنع البشر ، إنما هو وحى من الله . . . لرسول الله . . . بدين الله . . .

والكتاب يعتبر نصراً للإسلام . . وفخراً للمسلمين . . وعندما يترجم إلى كافة لغات العالم سيرى الناس أينما كانوا ما فى الإسلام من مزايا ،

ومقدار مسايرة الإسلام للتطور فى كل عصر . . . وأنه هو دين كل عصر وأوان . .

وسنرى أن الإسلام قد كسب بهذا الكتاب كسباً كبيراً . . . وسبحان الله . . . والحمد لله . . . وصدق الله العظيم الذى يقول فى سورة النصر :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً » .

الدكتور عبد العزيز الشريف
أخصائى وأستاذ الأمراض الباطنية

الدكتور يحيى طاهر
أخصائى وأستاذ الأمراض العصبية

الدكتور عز الدين عبد القادر
مدرس العقاقير بكلية الصيدلة

مُقـدِّمة

« ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ »

(سورة النحل : ١٢٥)

إن أهم ما يتميز به العصر الحالى . . التقدم العلمى . . . ولم يقتصر هدف العلماء فى أبحاثهم على ما كان معروفاً من ميادين العلم . . بل تعدى ذلك إلى الفضاء ومحاولة دراسة ما فيه من أسرار . . . وإلى الحياة ومحاولة الوقوف على كنهها وسرها . . .

وكل تقدم فى هذه العلوم . . يحمل معه آيات بينات على وجود الله . . . الخالق المدبر الحكيم . . . وعلى أن هذه الحياة . . . لا تقوم وحدها . . وأن عظمة هذا الكون . . . الذى يعتبر بحق لانهائى . . وغير محدود إنما ينبئ عن عظمة خالقه . . .

وخفتت الأصوات التى كانت تقول إن العلوم تهدم الأديان . . . وانكسرت حدة موجات الإلحاد . . العارمة . . . وبدأ عصر جديد . .

عصر . . . الدين والعلم . . . . عصر سيعود فيه الخلق إلى الدين . . مرة أخرى . . . بالعلم . . .

وبدأت الدعوة إلى الجماعات والهيئات الدينية للبحث فى أمور أديانها . . . لتجد تفسيراً لمعتقداتها وما تدل عليه فى ضوء الكشوف العلمية الحديثة .

والإسلام . . . ذلك الدين . . . الذى اعتنقه كثيرون من غير المسلمين بعد دراسته — لكثرة ما كتبه خصومه عنه — يؤيده العلم الحديث ويسايره . . . فإن كل ما يكشف عنه التقدم نراه . . . واضحاً فى الإسلام . . فى كتابه الخالد « القرآن الكريم » . . وفى عقائده وتكاليفه وأحاديث نبيه الأمين . . . وسيظل الإسلام على الدوام . . يسبق العلم . . . فى كل اتجاهاته .

وإنى لأحمد الله سبحانه وتعالى حمد المقر بنعمه . . الشاكر فضله أن لازمنى توفيقه بعد نجاح كتابى « الله والعلم الحديث » الذى جمع الأدلة العلمية على وجود الله سبحانه فهدانى إلى الأدلة العلمية التى تثبت أن الإسلام هو دين الله . . وأن أوضح أن العقائد والتكاليف الإسلامية هما ما ينادى بها التقدم العلمى فى العصر الحديث لمصلحة الفرد وخير المجتمع ؛ وقد ضمها كتابى هذا « الإسلام والعلم الحديث » ، الذى أقدمه للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . . ليشكروا الله . . . على ما هداهم إليه . . ولغيرهم . . . أينما كانوا . . ليعرفوا . . عن الإسلام . . . حقائقه .

والله أدعو . . أن يجزى خير الجزاء كل من دعا به . . . وأن يكتب لى من الثواب بقدر ضراعتى إلى رحمته . . .

والله ولى التوفيق .

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ » .

(سورة فصلت : ٣٣)

الإهداء

سيدى رسول الله

محمد بن عبد الله

صلاة . . . ودعاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

صدق الله العظيم



حاجة البشر إلى الأديان

من أهداف الرسل والأنبياء

خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون الفسيح . . الذى من ضمن كواكبه التى لاعدد لها ، الأرض التى نعيش عليها . ولما أراد سبحانه أن يعمر الأرض ، خلق آدم أول البشر . . وخلق حواء . . بعد أن هيأ لهما كل ما يقضى مطالبهما . . ويسد حاجاتهما . . فسخر الهواء والماء . . . وخلق لهما النبات والحيوان . . وتابع من أجلهما الليل والنهار .

وشاءت إرادة الله أن تكون الأرض مستقراً للإنسان إلى حين بعده يفارقها .. وبعد أن كان يعيش عليها حياً ، يغادرها إلى حيث يحاسب عما فعل. ولقد وهب الله للإنسان العقل والإدراك ليميز طريق الخير عن طريق الشر . وبرغم هذا العقل والإدراك فإن رحمته جل شأنه تتجلى فى رساله الرسل لبنى آدم ، يبصرونهم طريق الخير . . ويحذرونهم من طريق الشر . .

« يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »
(سورة الأعراف : ٣٥)

« يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ » (سورة المائدة : ١٥)

وحيث كانت الأرض دار فناء ، وحياة المرء عليها ليس لها بقاء ، وسيحاسب الإنسان بعد هذه الحياة على ما قدمت يداه . . إن خيراً وإن شراً . . كل بقدر عمله . . فقد شملت رحمة الله الإنسان فأرسل مبشرين لمن يعملون صالحاً . . استزادة لهذا العمل الصالح . . ومنذرين لمن يجترحون السيئات لعلهم يرتدعون .

« يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »

(سورة المائدة : ١٩)

« وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ »

(سورة الأنعام : ٤٨)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا »

(سورة الأحزاب : ٤٥)

ولقد خلق الإنسان اجتماعياً بطبيعته ، وخلق له عينين ليرى بهما غيره . . وأذنين ليسمع بهما من غيره . . ويدين يأخذ ويدفع بهما . . وقدمين يسعى عليهما . . ويتطلب أمر وجوده فى الحياة . . تكوين الأسرة التى يتكون من مجموعها مجتمع تتنازعه الرغبات وتكتنفه شتى الأهواء . . وإذا كانت الأسرة فى أبسط تكوينها لها كبيرها الذى يتولى أمرها . . والقبيلة لها شيخها الذى يحكم بين أفرادها . . والأمة لها حكامها الذين يشرعون القوانين واللوائح . . لذلك كان لابد للبشرية من رسل يبصرون أفرادها بحقوقهم وواجباتهم الواحد قبل الآخر . ويهدونهم إلى الصراط المستقيم . . .

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَـٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ »

(سورة الحديد : ٢٥)

« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ »

(سورة البقرة : ٢١٣)

« إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا »

(سورة النساء : ١٠٥)

وبنفس الإنسان غرائز ونزعات مختلفة . . منها المحافظة على نفسه، والدفاع عن وجوده، والرغبة فى السيطرة على غيره . . وهذه كثيراً ما تتسبب فى أن يضر الإنسان غيره . . فى سبيل مصلحة عارضة ، أو إرضاء نزعة جامحة . . فلا بد من إرسال رسل لدفع هذا الضر عن الناس، وتذكرة الإنسان بوجود الله الذى أعد للمحسن ثواباً ، وللمسىء عقاباً .

كما أن اصطراع الإنسان فى سبيل رزقه . . وتزاحم الناس على الاستزادة فى المال والحرص على التفاخر به كثيراً ما يتسبب فى أن ينسى الإنسان أن له خالقاً أراد فقدر . . وشاء فقرر . . وإذا ما طال الأمد بالإنسان، وهو فى غيبة عن ذكر الله، فكثيراً ما يضل فى حياته؛ وفى غمرة نسيان الله قد يرتكب ما ينهى عنه الإيمان بالله . كما قد يتسبب فى أن

يتخذ الإنسان من دون الله أرباباً من بنى الإنسان . . أفلا يكون هناك بد من إرسال الرسل يذكرون الناس بالله ؟ أو لا يجب أن تُرسَل الرسل على فترات من الزمن يدعون الناس إلى التوحيد، وقصر العبادة على الله دون غيره ؟

« وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ »

(سورة النحل : ٣٦)

« فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ »

(سورة المؤمنون : ٣٢)

وقد يستجيب بعض الناس لداعى الخير، الذى تدعو إليه الأديان فى رسالات الرسل ، وقد لا يستجيب البعض الآخر . . فالذين لا يستجيبون يحق عليهم العذاب . ولكن رحمة الله التى وسعت كل شىء . . والتى شملت كل موجود . . تأبى أن تعذب العتاة الخطاة قبل أن يرسل إليهم الله رسولا منذراً .

« وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا »

(سورة الإسراء : ١٥)

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا »

(سورة القصص : ٥٩)

والإنسان مهما أوتى من العلم والحكمة فما زال دون علم الله العليم . . وسيظل لا يعلم إلا ما شاء الله له أن يعلمه . ولقد أرسل سبحانه وتعالى

لهداية الإنسان رسلا، برسالات يعلمهم فيها من الحكمة والأمر ما لم يكونوا يعلمونه .

« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ »

(سورة البقرة : ١٥١)

« لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ »

(سورة آل عمران : ١٦٤)

تتابع الأديان

يقرر علم الأساطير « الميتولوجيا » ، أن الأسباب التى من أجلها عبد القدماء أبولو وعشتروت وأبيس ، إنما ترجع إلى أساطير وخرافات ، دخلت فى بواقى أديان كانت موجودة فى أزمنة غابرة . . كما يقرر هذا العلم ، أن الأديان قديمة فى الأرض قدم الإنسان . فكلما دعت الحاجة إلى تعليم الإنسان شيئاً جديداً .. أو تذكرته برب العالمين ، أرسل الله الرسل والأنبياء.

ويحدثنا التاريخ أن الأديان قد تتابعت من يوم أن خلق الله آدم . . وأن الأديان قد ظهرت كلما دعت الحاجة إليها . . وأن الرسل والأنبياء

قد تواتروا. ولا هدف لهذه الأديان إلا الدعوة للعمل الصالح، والرجوع إلى الله وعبادته .

« وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدُونِ » (سورة الأنبياء : ٢٥)

« إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا اللَّهَ » (سورة فصلت : ١٤)

« فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ » (سورة المؤمنون : ٣٢)

« وَقَالَ الْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ » (سورة المائدة : ٧٢)

« وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ » (سورة العنكبوت : ١٦)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ » (سورة المؤمنون : ٢٣)

« وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ » (سورة الأعراف : ٦٥)

« وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ » (سورة الأعراف : ٧٣)

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ »

(سورة الأعراف : ٨٥)

ولا يعرف إطلاقاً عدد الرسل والأنبياء . . إذ منهم من ذكر فى الكتب المقدسة ومنهم من لم يذكر .

« إِنَّا أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا »

(سورة النساء : ١٦٣ ، ١٦٤)

وسواء أكان عددهم عشرة آلاف كما يقول البعض ، أم فوق المائة ألفاً كما يقول البعض الآخر ، فإن الثابت أن الرسل والأنبياء قد أرسلوا على فترات من الزمن . . وأن ظهور الرسول أو النبى إنما كان لحاجة قومه الملحة إلى من يهديهم سواء السبيل . . وأن الأديان تتابعت لتساير التطور الذى حدث فى المجتمع الإنسانى . .

ومن الثابت أيضاً أن الشرق كان دائماً مهد الأديان جميعها . . فالبرهمية . . ظهرت فى قبيلة آرية على حدود الهند . . .

والبوذية نشأت فى الهند . . .

والكنفوشيوسية كان مهدها ولاية شانتنج بالصين . . .

أما اليهودية فإن يعقوب الذى ينتمى إليه الأسباط الاثنا عشر كان أحد أبنائه يوسف الصديق . . . الذى أنزل أهله وعشيرته أرض غسان .. وهى قرب الزقازيق ، فى إقليم مصر من الجمهورية العربية المتحدة وتلقى سيدنا موسى (نبى اليهود) من ربه الألواح وهى الوصايا العشر أساس التوراة — كتاب اليهود المقدس — فى وسط صحراء سيناء كما يقول رأى ، أو فى أرض فلسطين الجنوبية كما يقول رأى آخر .. وسواء صح ذلك القول أم ذاك فإن الشرق هو مهد اليهودية . .

وفى فلسطين نشأ سيدنا عيسى نبى النصرانية .. وأظهر دين الله على العالم . . وبذلك ظهرت المسيحية وانتشرت فى أنحاء العالم من الشرق .

لذلك لم يكن عجباً أن يكون الشرق منبع النور الجديد ، الذى أراد الله أن يظهره للعالم كافة . . وأن يبعث من العرب سيد الخلق وخاتم الرسل والنبيين محمداً صلى الله عليه وسلم بدين الخلود . . دين الإسلام والسلام .

الحاجة إلى الإسلام

يكوّن شبه جزيرة العرب مستطيلا غير متوازى الأضلاع ، شماله فلسطين وبادية الشام ، وشرقه خليج فارس ودجلة والفرات ، وجنوبه المحيط الهندى وخليج عدن ، وغربه البحر الأحمر . فهو لذلك يحده البحر من غربه وجنوبه وتحده الصحراء من شماله وشرقه .

وكان ذلك التحصين الطبيعى ، من ضمن الأسباب التى أدت إلى عدم انتشار اليهودية أو المسيحية فى تلك البلاد .

والعرب فى الجزيرة كانوا بدواً . . وهم الغالبية ، ويعيشون على ما تنتجه ماشيتهم التى يقومون برعيها ، وسد حاجاتهم من منتجاتها . . والبعض منهم كان يتخذ من الغارة والسلب سبباً لمعيشتهم ووسيلة لارتزاقهم . أما الحضر فكانوا يعيشون على التجارة أو الزراعة .

والأعراب كانوا ضعاف الإيمان ، بعيدين كل البعد عن الدين .

« ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

(سورة التوبة : ٩٧)

وكانوا لا يؤمنون إلا بالتقاليد ، والشجاعة العمياء ، والكرم إلى حد الإسراف . وكانت المرأة تشارك الرجل فى كل أعماله ، إلا أنها لا تقوم مقامه فى الحرب ، التى هى عندهم عنوان الشجاعة ، ورمز الإقدام ، وأساس حياتهم . . لذلك انحطت منزلتها عن منزلة الرجل إلى درجة أن الرجل كان يصاب بصدمة إذا ما أنجبت زوجته له أنثى . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ »

(سورة النحل : ٥٨ ، ٥٩)

وكانت وثنية العرب فوق ما يستطيع الإنسان أن يتخيله أو يتصوره . . إذ كان لكل قبيلة معبودها الذى تدين له كل أفرادها بالخضوع والتقديس

والعبادة .. وتختلف هذه المعبودات، فمنها الصنم، وهو ما كان على شكل الإنسان من معدن أو خشب، وإذا كان من حجر يسمى وثناً. أما النصب، فصخرة غير ذات صورة، تعبدها القبيلة لخرافة تناقلتها تزعم أنها صخرة من السماء أو أنها قامت وحدها .

ولعل أشهر أصنامهم « هبل »، وهو كبير الآلهة عند العرب وكان على شكل الإنسان من عقيق .. وقد كسرت ذراعه فأبدلها القريشيون بذراع من ذهب . . وكان هذا الصنم يسكن الكعبة، وإليه يحج الناس ليقدموا إليه القرابين والصلوات . . .

وكان أكثر أفراد العرب يتخذون لهم أصناماً أو نصباً فى منازلهم يطوفون بها حين خروجهم وحين عودتهم ، ومنهم من كان يحمله فى أسفاره ليعبده أينما حل أو ارتحل .. وكانوا يقولون إنهم يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ..

ولكن بمرور الزمن نسوا الله وظلوا على عبادة أصنامهم . . .

أما فى غير بلاد العرب، فكانت الخلافات على أشدها بين اليهودية والنصرانية . . وكانت المسيحية منقسمة إلى فرق متناحرة .. الأمر الذى أدى إلى تدخل قسطنطين إمبراطور الرومان الذى جمع مجمع نيقية فى عام ٣٢٥ من ميلاد المسيح واجتمع فيه ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة والبطاركة وكانوا مختلفين فى الآراء والعقائد . . .

ألم تكن الحالة هذه تستلزم ديناً جديداً، يدعو الكافة إلى إخلاص العبادة لله وتوحيده ؟ ؟

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً »

(سورة سبأ : ٢٨)

وبعث رسول يحطم الأصنام وهو يردد قول الله : « قُلْ جاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً »

وليس أصدق من جون لابوم وهو يصف حالة العالم قبل الإسلام فيقول : « كان جو العالم الأرضى متلبداً ، بسبب الاضطرابات الوحشية فى كل جهة ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة ، أشدهم صيحة فى ميدان الحروب والمعارك . والعمل الغالب لهم سلب الأمم والشعوب » .

ويقول دوزى : « كان يوجد على عهد محمد فى بلاد العرب ثلاث ديانات ، الموسوية والعيسوية والوثنية . فاليهود كانوا أشد الناس تمسكاً بدينهم وأكثرهم حقداً على مخالفيهم . أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون ، وكان المتذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية . وأما الوثنيون فهم السواد الأعظم من أمة العرب ، وكان لكل قبيلة بل أسرة منهم آلهة خاصة » .

أما توماس كارليل فيقول : « لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به منها أمة خاملة لا يسمع لها صوت ولا يحس فيها حركة منذ بدء العالم . فما إن أرسل الله لهم نبيهم ، حتى صار الخمول شهرة ، والغموض نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقاً . . وشمل نوره الأنحاء ، وعم ضوؤه الأرجاء . وما هو

إلا قرن بعد إعلان هذا، الدين حتى أصبح للعرب قدم فى الهند، وأخرى فى الأندلس . وعم نوره ونبله وهداه نصف المعمورة » . . .

« ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً » .

(سورة المائدة : ٣)

أضواء على الإسلام

ما هو الإسلام

يسمى العهد قبل الإسلام جاهلية . وليست الجاهلية — كما قد يتبادر إلى الذهن — ضد العلم ، ولكنها تطلق على السفاهة والكبرياء الذى لا أصل يستند إليه ، والغضب المشتد الذى يخرج صاحبه عن آدمية الإنسان إلى تهوس الحيوان . ويقال إن الإنسان استجهله الأمر عندما يخرجه من هدوئه إلى غضبه ، وإن فى المرء روح الجاهلية أى فيه الأنفة التى لا مبرر لها . . . والثورة التى لا سبب لها . ولذا فإن الجاهلية أول ما تتميز به المفاخرة فى الأنساب والجاه . . وكثرة أوصاف الحروب التى كانت تشنها القبائل ، والغزوات التى كانت دائماً موضع تفكير رجالهم . فالحروب والسلب والنهب والإغارة والضرب والكر . . كل ذلك كان من شيمة الجاهلية . . وكانت المرأة فى الجاهلية تحتطب وترعى الغنم وتزرع وتحصد وهى أقرب فى عقلها إلى الرجل ولكنها لا تشغل مكانه فى الحرب . فانحطت لذلك منزلة المرأة عن الرجل . .

فالإسلام إذاً ، هو ضد الجاهلية فى كل ما فى الجاهلية . . فالإسلام هدوء النفس ، والتواضع ، والاعتماد على الله مع العمل ، والمساواة بين الناس مساواة تامة فى الحقوق والواجبات . .

والإسلام هو الدعوة إلى السلام والمحبة . . لا يدعو إلى قسوة . . ولم يشعل حرباً . . « وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا

وإذا خاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالوا سَلاَماً » (سورة الفرقان : ٦٣)

« وَمَنْ أَحْسنُ قوْلاً مِمَّنْ دَعا إلَى اللهِ وعَمِلَ صَالِحاً وقَالَ إنَّنى مِنَ الْمُسْلمينَ » (سورة فصلت : ٣٣)

« وَلَا تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ إلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »
(سورة العنكبوت : ٤٦)

وفى الحديث عن سيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده » . وعليه فالمسلم لا يعتدى على أحد لا بالقول ولا بالفعل . . فهو ليس سباباً ولا شتاماً ولا معتدياً ولا آثماً . ويأمر الإسلام بالعدل والبر بكل قريب وينهى عن كل منكر أو فاحشة ، ويحرم البغى .

« إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »
(سورة النحل : ٩٠)

والإسلام كذلك هو أن يسلم الإنسان أمره لله طوعاً واختياراً تسليماً تامًّا .

وأَنِيبُوا إلَى رَبِّكُمْ وأَسْلِمُوا لَهُ » (سوره الزمر : ٥٤)

« فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ » (سورة آل عمران : ٢٠)

وفى سيرة ابن هشام أوضح جعفر بن أبى طالب الفرق بين الإسلام والجاهلية فى حديثه للنجاشي وقدهاجر إليه فقال: «كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. قد دعانا إلى الله لتوحيده ولنعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقنا وآمنا به، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادكم».

ويقول الأستاذ جولد زيهر: «إن الإسلام رسم للحياة مثلا أعلى غير المثل الأعلى للحياة فى الجاهلية، وهذان المثلان لا يتشابهان، وكثيراً ما يتناقضان. فالشجاعة الشخصية والشهامة التى لا حد لها، والكرم إلى حد الإسراف، والإخلاص التام للقبيلة، والقسوة فى الانتقام والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل، هذه هى أصول الفضائل عند العرب الوثنيين فى الجاهلية. أما فى الإسلام فالخضوع لله وحده، والانقياد لأمره، والصبر وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين، والقناعة وعدم التفاخر والتباهى، وتجنب الكبر والعظمة هى

المثل الأعلى للإنسان فى الحياة » .

وتعاليم الإسلام تنقسم إلى قسمين : عقائد وأعمال . أما العقائد فأولاها الاعتقاد بالله الواحد الأحد الذى ليس كمثله شىء . . فهو لم يلد ولم يولد . . وتعالى عن الشبه . . تفرد فى الذات والصفات . . فليس له كفواً أحد . .

« قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ » (سورة الإخلاص)

والاعتقاد بسابق الأنبياء والرسل والكتب السماوية بدون تفرقة بينهم فكلهم رسل الله دعوا إلى توحيده . . وعبادته . . والعمل الصالح .

« ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ، وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ ، وَكُتُبِهِۦ ، وَرُسُلِهِۦ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ »

(سورة البقرة : ٢٨٥)

والاعتقاد باليوم الآخر والبعث والجزاء . . عقاباً . . وثواباً . . . .

ذلك اليوم الذى فيه تبيض وجوه المحسنين وتسود وجوه الظالمين .

« يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ

تَكْفُرُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ » (سورة آل عمران : ١٠٦ ، ١٠٧)

وأما الأعمال فقد شرعت لخير الفرد ، ولمصلحة الجماعة ، وعمار الدنيا وحسن ثواب الآخرة . وقد أوضح العلم الحديث بعض الحكم التى هدف الإسلام إليها بالأعمال التى أوجبها . . . كالصلاة والصيام والزكاة والحج . وقد أوجب الإسلام أموراً ونهى عن أخرى وما ذلك إلا لإفشاء السلام وإشاعة المحبة وإقامة العدل وتخلق الناس بالخلق الحسن .

« وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا »

« لَا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » (سورة النساء : ٣٦ ، ١١٤)

« خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ »
(سورة الأعراف : ٦٥)

ويقرر شاعر الألمان « جيته» لذلك : « إذا كان هذا هو الإسلام فنحن جميعا ندين بالإسلام » .

نبي الإسلام

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي . . . سلالة كريمة لبيت كريم . . أبوه عبد الله كان موضع حديث أهل مكة . . جمال الخَلق وكمال الخُلق . وكانت أجداده فى موضع الفخر والمجد والكرامة فى بلاد العرب قاطبة . . .

جده الأكبر قصيّ اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من المجد . ففى منتصف القرن الخامس الميلادى كان بيده كل زمام الكعبة : الحجابة وهى تولى مفاتيحها . . والسقاية أى سقاية الحجيج بالماء العذب الذى كان عزيز المنال بمكة . . . والرفادة وهى إطعام الحجاج . . والندوة أى رياسة الاجتماع على طول العام ، واللواء والقيادة وهى إمارة الجيش ورفع الراية الخاصة على مكانه . ولم يحدث أن اجتمعت لفرد كل هذه المفاخر التى كانت موضع التفاخر فى البلاد لغير قصي ثم لأولاده من بعده .

أما أمه فهى السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة سيد بنى زهرة شرفاً وأصلا ومحتداً . دوحتان طاهرتان نقيتان كريمتان . . . أنبتا خير عباد الله . . محمداً الذى ولد سنة ٥٧٠ م . . .

توفى والده قبل مولده . وقد حمله جده عبد المطلب فى سابع يوم لمولده ؛ ودخل به الكعبة ، ونحر الذبائح ، ودعا أهالى قريش ، فأكلوا ثم أعلن لهم أنه سمى الطفل اليتيم محمداً . . . ولم يكن هذا الاسم قد عرف من قبل

فسألوه ولم رغبت عن أسماء آبائك فقال : « أردت أن يكون محموداً فى السماء لله وفى الأرض لخلقه » .

وكما هى عادة أشراف العرب إذ يرسلون أبناءهم من اليوم الثامن للميلاد إلى البادية مع المراضع ، فقد أخذته حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ، وبالرغم من أنه كان يتيماً ومثله لا يكون موضع الطمع من المراضع ، وبالرغم مما كانت تغالى المراضع فى بيان ما تتكلفه فى الرضاعة ، فإنه صح عن حليمة أنها كانت تتحدث عنه مذ أخذته من أنها وجدت فيه من أول يوم له عندها بركة أى بركة ، سمنت غنمها وزاد لبنها وبارك الله لها فى كل ما عندها ... وأقام محمد فى الصحراء حتى بلغ الخامسة من عمره وهو يعيش فى حريتها اللانهائية وفى حياة الاستقلال والرجولة .

ولقد كان ليتمه بموت أبيه وهو ما زال فى بطن أمه ، ثم يتمه بوفاة أمه وهو طفل لم يبلغ الحلم ، ثم موت جده عبد المطلب الذى كفله ، أثره فى نشأته التى لم يعرف عنها إلا كل الجد والرجولة والاستقامة والشرف .

مئات القصص ، وآلاف الحوادث ، سطرها المجتهدون وتناقلها الرواة ، وكتبها الخصوم قبل الأنصار ، تحكى عن أمانة محمد وصدق محمد ورجولة محمد ومتانة خلق محمد .

لقد لقبوه منذ طفولته بالأمين ، وظل يلقب بهذا اللقب ويعرف به دون غيره . . . ووصفوه بالصادق . . وحكم بين رؤساء القبائل عندما اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود بالكعبة .

مئات الأحاديث وآلاف الكتب سجلت مبلغ ما كان عليه من عفة ونزاهة وطهر . . أراد يوماً وهو شاب أن يهبط مكة ويلهو فيها كما يلهو

الشباب ، ولكن استرعى انتباهه فى أهالى مكة عرس زواج ، وقف عنده حتى لفه النوم بهدوئه فنام . . . وفى ليلة أخرى أراد أن ينزل مكة لهذه الغاية ، فما إن شارف مكة ، حتى استمع إلى أصوات موسيقية رائعة لم يعرف أين مبعثها ، فجلس يستمع إليها حتى نام كذلك . . .

هذا هو الرسول الذى حفظه الله ، منذ أن كان نطفة طاهرة فى رحم طاهرة . . ولقد كان للرسالة الكريمة التى غير بها سيد البشر وخاتم النبيين تاريخ العالم أثرها فى قلوب المشركين والكفار ، فحاولوا النيل من هذه الرسالة فلما لم يجدوا مطعناً على الإسلام ، اتجهوا إلى رسول الإسلام يحاربونه . لذلك لم نجد فى التاريخ رجلا قام ضده محاربون متحمسون كمحمد الذى كلما مرت الأعوام ورفرفت رسالته لتنشر السلام والمحبة والصفح والمساواة وتدعو إلى محاسن الخلق ، قام بعض خصوم الدين لتهوى بهم ألفاظهم إلى أعمق الحضيض بما يقولونه من فحش العبارة وقذر السباب وبما يختلقونه من المفتريات والأكاذيب أمثال رودلف ولوهيم ، وهوتنجر ، وبلياندر . . .

لم يجدوا فى حياة الرسول العزيز، ولا فى أخلاقه ،ما يمكنهم من الطعن فيه ،فجندوا أقلامهم وجمعوا صحفهم ليفتروا على الله الكذب . فيقولون كان محمد قساً رومانياً غضب لأنه لم ينتخب لكرسى البابوية . . وإنه وهو الفيلسوف الحكيم عز عليه ذلك . . فلم يشأ أن يصبح شيخاً لقبيلة أو رئيساً لأمة . . إنما أراد أن يكون إلهاً . . أو فى مصاف الآلهة .

ومما يثبت كذب هذا الافتراء أن محمداً جاء برسالته فى وقت تناحرت فيه الفرق الدينية وتشعبت المعتقدات . . وتناول البعض الرسالات الدينية

السابقة بالتحريف والتغيير . . وبلغ الأمر إلى الارتفاع بالأنبياء إلى أكثر مما هم . فلو كان محمد يرجو مجداً دنيويًّا لوجد البيئة الصالحة لأن يدعو بالرسالة ، ويترك لأنصاره أن يتخذوه إلهاً . . أو نصف إله .. ولكنه يتلو عليهم قرآن الله ليقول عن نفسه . . فى سورة الكهف : « إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا »

وفى سورة فصلت : « قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ »

ويحسم الرسول الأمين الأمر حسماً فيقول فى حديثه الشريف : « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ، فإنما أنا عبد الله ورسوله ، فقولوا عبد الله ورسوله » .. فهل بعد ذلك يستقيم قول قائل إنه كان يريد مجداً أو كان يريد أن ينصب نفسه إلهاً ؟ !

كما أشاع أعداء الدين أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم كان مريضاً بالصرع وأن ما يعتريه فى ساعات الوحى إنما هى نوبات الصرع .. التى كان يسمع أثناءها كلاماً ردده فأصبح قرآناً . . ويرد الدكتور يحيى طاهر إخصائى وأستاذ الأمراض العصبية بكلية طب ومستشفى قصر العينى بجامعة القاهرة على هذه الفرية فيقول : « لقد أراد بعض الناس

أن يطعنوا الدين الإسلامى فى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالوا إن النبي محمداً كان مريضاً بالصرع ، وإن الوحى الذىكان ينزل على الرسول بالقرآن ما هو إلا نوبات صرعية كان يسمع أثناءها كلاماً ردده ليصبح قرآناً . والذى يدرس الصرع من أى ناحية من نواحيه الطبية أو العلمية أو الفسيولوجية يتبين له جسامة هذا الافتراء . . إذ أن النوبات الصرعية ليست نوبات نفسية كما يتبادر إلى الذهن ، ولكنها ناتجة عن تغيرات فسيولوجية عضوية فى المخ ، بدليل أنه أمكن تسجيل تغيرات كهربائية فى المخ أثناء تلك النوبات الصرعية مهما كان مظهرها الخارجى. ومن المعروف أن هناك مظاهر خارجية عديدة ومختلفة للنوبات الصرعية ، وذلك تبعاً لمراكز المخ التى تبدأ فيها التغيرات الكهربائية وطريقة وسرعة انتشارها . فإذا بدأت فى مراكز الحركة كانت النوبة على شكل تقلصات أو تشنجات عضلية ، وإذا بدأت فى مراكز الإحساس كانت النوبة على شكل إحساسات مختلفة ، وإذا بدأت فى مراكز الإبصار كانت النوبة على شكل ذكريات أو أحلام وهكذا . . .

ويكفى أن نشرح نوعاً واحداً من النوبات الصرعية الذى يشتبه أن يكون هو النوع الذى قيل عنه إن النبي صلى الله عليه وسلم كان مصاباً به ، ألا وهو النوبات الصرعية النفسية ، فى هذه النوبات الصرعية النفسية يكون التغير العقلى هو المظهر الأساسى للنوبة ، ولا يفقد المريض شعوره تماماً كما فى الأنواع الأخرى من النوبات ، ويمكنه إلى حد ما تذكر التجارب النفسية التى حدثت له أثناء النوبة بعد انتهائها . وتكون هذه التجارب النفسية التى تمر بالمريض أثناء النوبة إما على شكل انفعالات

مثل الخوف ، أو على شكل تفكير فى اتجاه معين كأن يردد المريض فى ذهنه " يجب أن أقول لفلان كذا وكذا " أو على شكل خيالات أو هلاوس . وفى هذه الحالة تمر بذهن المريض ذكريات أو أحلام مرئية أو سمعية أو الاثنان معاً .

ومن أمثلة الهلاوس المرئية ما قالته مريضة من أنها ترى أثناء النوبة فتاة صغيرة تسير بجانبها من الجهة اليمنى ثم من الجهة اليسرى ، وإن هذه الصورة تتكرر بنفس الشكل فى جميع النوبات . وبسؤال المريضة تبين أنها لا يمكنها تبين ملامح الفتاة أو معرفة ملابسها .

وقالت مريضة أخرى إنها ترى أثناء النوبة شبحاً أسود يهددها وهى لا يمكنها أن تتبين ملامح هذا الشبح وصورته ، وتتكرر بنفس الشكل فى جميع النوبات .

ومن أمثلة الهلاوس السمعية قول مريضة إنها تسمع أصواتاً قادمة من الجهة اليمنى ولكنها ليست أصوات أطفالها ، كما أنها تسمع فى نوبات أخرى قطعة موسيقية تظن أنها قادمة من الراديو الموضوع فى حجرة الجلوس . وبالرغم من أنها سمعت هذه القطعة الموسيقية مراراً فى الراديو فإنها لم يمكنها أن تتبين الكلمات فى تلك القطعة الموسيقية .

وقالت مريضة أخرى إنها تسمع أثناء النوبة أغنية كانت تغنيها لها أمها فى صغرها . وهذه المقاطع من الأغنية تتكرر بنفس النظام فى جميع النوبات .

من ذلك نرى أن الأحلام والهلاوس التى تمر بذهن المريض فى أثناء النوبة الصرعية ما هى إلا تنبيه لذكريات قديمة مرت بالإنسان أو فكر

فيها ثم حفظت فى ثنايا المخ . وقد ثبت ذلك علمياً بأن نبهت مراكز المخ المصابة بتيار كهربائى من الخارج فشعر المريض بنفس الهلاوس التى تنتابه أثناء النوبة الصرعية .

كما نرى من الأمثلة التى ذكرت أن الهلاوس تتكرر بنفس الشكل بتكرار النوبات، وقديكون هناك أكثر من نوع واحد من الهلاوس فى المريض الواحد ، ولكنها تتكرر كلها أو بعضها بالشكل نفسه .

كذلك نرى أن المريض يتذكر التجارب النفسية التى مرت به فى أثناء النوبة عامة ، ولا يمكنه أن يتذكر التفاصيل أو أن يصف ما مر به فى أثناء النوبة وصفاً دقيقاً .

وبتطبيق ما وصلنا إليه من هذا العرض السريع للصرع على الافتراء الذى يفتريه خصوم الإسلام على الوحى الذى نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، نجد أن الهلاوس والأحلام التى تمر بذهن المريض بالصرع ما هى إلا أجزاء من ذكريات قديمة نبهتها النوبة ، ولا يمكن للمريض بالصرع أن يؤلف أثناء النوبة شيئاً ، فكيف بالقوانين والآداب والقصص والعلوم وغير ذلك مما اشتمل عليه القرآن . . . . ؟

كذلك لا يمكن أن تتحسن لغة المريض بالصرع أثناء النوبة أو بعدها ، لأن هذا التحسن يحتاج إلى تعليم ، أما الصرع فهو ارتباك مفاجئ فى كهرباء المخ ووظيفته . وقد نزل القرآن بلغة عربية فصحى لم يتعلمها النبى قبل الرسالة .

كما أن الأحلام والهلاوس التى يشعر بها المريض فى أثناء النوبات الصرعية ، تتكرر بعضها أو كلها بنفس الشكل بتكرار النوبات، كما أن

المريض لا يمكنه أن يصفها وصفاً دقيقاً . أما القرآن الكريم فأنزلت آياته واضحة محددة متممة بعضها بعضاً ؛ شاملة كل ما يهم الناس فى شؤون دينهم ودنياهم . فهل يمكن أن يقال بعد هذا العرض العلمى البحت إن القرآن ما هو إلا هلاوس رجل مصروع ؟ ؟ ؟ إن هذا إلا افتراء فليتحكم الناس بأنفسهم بعد هذا العرض العلمى » .

والدكتور عبد العزيز الشريف إخصائى وأستاذ الأمراض الباطنية بكلية طب قصر العينى وعضو كلية الأطباء بأدنبرة يقول عن هذه الفرية :

« المرض علة تصيب أى عضو من أعضاء الجسم ، فتسبب خللا فيصبح الإنسان لذلك معتلا . والشخص المريض هو الذى تغيرت حالته بسبب المرض فأصبح غير عادى ؛ إذ يقل فى قوته وصحته وبالتالى فى إنتاجه وتفكيره .

ولم يعرف الطب ، ولم يحدثنا التاريخ العلمى ، أن شخصاً أصيب بمرض فوهبه المرض علماً . . أو عقلا . . أو مقدرة . . إذ أن العقل السليم فى الجسم السليم .

فكيف يقولون عن الرسول الكريم محمد صلى الله عايه وسلم إنه أصيب بالصرع ، فتتحسن لغته تحسناً بحيث لا يمكن أن نقارن بين حديثه العادى وبين القرآن الكريم الذى يقولون إنه حديثه وهو فى نوبة الصرع ؟ وكيف يشرع مريض هذه التشريعات التى تعتبر الأسس القويمة لكل القوانين التى تهدف إلى العدالة والرحمة والتقدم ؟ وهل يستقيم ذلك والصرع حالة تتميز بالاختلال المفاجئ فى وظيفة المخ ؟

وكيف يكون ما عند الرسول نوبات صرع ، وهذه النوبات تسبب

للمريض آلاماً شديدة فى عضلاته تكون مصحوبة بالصداع والغثيان وتبقى مدة بعد النوبة التى هى تشنج وتصلب فى العضلات . . . فإذا غابت عنه حزن ووجل ؟ فقد فتر الوحى عن الرسول فترة فتولاه الخوف والوجل وحزن حتى نزل قول الله سبحانه وتعالى له :

« وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ »

فهل بعد ذلك من يقول إن الرسول إنما كان مصاباً بالصرع ؟ ؟ اللهم إن هذا افتراء على الحق من الباطل » . . .

ويقول الدكتور عز الدين عبد القادر مدرس العقاقير بكلية الصيدلة بجامعة القاهرة :

« تخبط الناس منذ بدء الخليقة فى تعريف مرض الصرع ، فمن قائل إنه يرجع إلى أرواح شريرة تسكن مخ المريض ، إلى غيره يقول إنه من آثار الآلهة ، وإن كل حركة يحدثها المرض إنما هى من فعل إله من الآلهة ، ولهذا سموه بالمرض المقدس . . . حتى جاء أبقراط العظيم فى القرن الخامس قبل الميلاد وأظهر كذب هذه الأقوال ونادى بأن هذه الأعراض إنما هى أعراض مرض لا يختلف عن باقى الأمراض الأخرى من أن له سبباً ينشأ عنه . . . ووصف نوبات الصرع بدقة متناهية لا تختلف فى شىء عما تصفه به أحدث المراجع الطبية . . . فالمريض يفقد النطق ، ويخرج الزبد من فمه ، وتصطك أسنانه ، وتنقبض يداه ، وتزوغ عيناه ، ويفقد الوعى تماماً ، كما يفقد القدرة على ضبط البول أو البراز . . .

ومن هذا نرى أن مريض الصرع يفقد حواسه ، ويفقد السيطرة على نفسه ، فيصبح ولا عقل له ، ولا وعى عنده ، ولا سيطرة على حواسه جميعاً . . .

فلينظر إلى ذلك من يقولون إن القرآن الكريم إنما هو هلوسة مصروع ، وحديث الرسول — عليه الصلاة والسلام — وهو فى نوبات الصرع . . . فكيف يمكن لمريض هذه حالته أن يأتى بجوامع الكلم والآيات البينات وبالبلاغة التى أعيت جهابذة العرب . . وأرباب البيان ؟ ! »

ويقول ر . ف . بودلى فى كتابه « الرسول : حياة محمد » فى هذا الشأن : « يذكر الأطباء أن المصاب بالصرع ، لا يفيق منه وقد ذخر عقله بأفكار لامعة ، وإنه لا يصاب بالصرع من كان فى مثل الصحة التى يتمتع بها محمد حتى قبل مماته بأسبوع واحد ، وما كان الصرع ليجعل من أحد نبياً أو مشرعاً ، وما رفع الصرع أحداً إلى مراكز التقدير والسلطان يوماً . وكان من تنتابه مثل هذه الحالات فى الأزمنة الغابرة يعتبر مجنوناً أو به مس من الجن ، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد » . ولا شك أن ذلك ينفى عن الرسول تلك الفرية الظالمة . . .

ولما لم يجد خصوم الإسلام جدوى فى هذه المفتريات التى لم يعرها من كان عنده عقل سليم أية التفاتة، ولوا وجوههم إلى زواج الرسول فأسرفوا فى نقدهم، وكيف أنه أحل لنفسه ما حرمه على غيره ؟ ؟

لم تظهر حكمة زواج الرسول بمن تزوجهن إلا عندما اتسع أفق الفكر

فى العصر الحديث . فإذا ما استعرضنا زواج النبى نجد أن كل زواج إنما كان يحقق غرضاً سامياً أو كسباً للدين أو عملا بتشريع جديد ، وأن الرسول الأمين كان بعيداً كل البعد عن كل مرغبات الزواج من مال أو جاه أو شهوة أو مغنم . . .

فخديجة بنت خويلد سيدة بنى أسد كانت تزوجت عتيقاً المخزومى ولما مات تزوجت أبا هالة التميمى ، فمات أيضاً ، وبذلك ورثت عنهما مالا وفيراً علاوة على ما كانت تملكه . . وقد كانت ذات شهرة كبيرة بين قومها لما امتازت به من جاه وحسب ونسب علاوة على مالها ، مما جعلها مطمع القاصدين للزواج من كبار القوم وأشراف قريش. ولكنها كانت ترد كل طالب ، فقد كانت عازفة عن الزواج . وكانت ترسل الرجال على تجارتها .. فأرسلت نبى الله ، ليشرف على هذه التجارة لما سمعت عنه من أمانة واستقامة . وعادت القافلة وقد حققت أرباحاً لم تعهدها ورواجاً لم تكن تتوقعه ، فلما سألت غلامها ميسرة الذى صاحب الرسول روى لها رقة شمائل محمد وجمال نفسه وصفاء قلبه وطهارة سريرته ، وحدثها عما شاهده من أمانته المطلقة ونزاهته وعفته . . فأرسلت له صديقتها نفيسة بنت منية تقترح عليه أن يتزوجها . . وتزوجها الرسول وهو شاب فى ريعان شبابه إذ لم يكن تجاوز الخامسة والعشرين من عمره فى حين كانت السيدة خديجة قد بلغت الأربعين من عمرها . .

فهل كان سيدنا محمد رجل متعة ؟ وهل كان كما يقول عنه أعداء الإسلام مشغوفاً بالنساء ، وها هوذا يتزوج من سيدة تزوجت قبله مرتين وتكبره بخمسة عشر عاماً ؟... لقد شدت خديجة أزر الرسول برجالها

وعصبيتها حتى إنه عندما جاءه الوحى وخشى منه سألت خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل الذى كان أول من بشر بنبوته وشجعه على إعلان الدعوة حيث قال له وقد قابله فى الطواف بالكعبة : « والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى . . ولتكذبن ولتؤذين . . ولتخرجن ولتقاتلن . . ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه » . ثم قبله ،وشجع ذلك النبى على أن يدعو قريشاً فيعلن لهم دعوة الله . . كما أن السيدة خديجة شاركت الرسول فى جهاده ، فكانت تهون عليه أمر إيذاء الكفار له . . وتدفعه إلى النضال والصبر . . وعاشت معه؛ خمسة وعشرين عاماً . . أمضت منها خمس سنوات فى جهاد الدعوة تقاسمه ما يلقى من عنت وشدة حتى لقيت ربها ولها من العمر خمسة وستون عاماً .

وبعد موت خديجة ازدادت قريش فى أذاها للنبى فخرج إلى الطائف يدعو إلى الإسلام ،فوجد من ثقيف التكذيب والإعراض،وبعد عام من جهاده عاد إلى بيته بمكة فوجده قفراً . فلما أحس المسلمون بما شعر الرسول به من وحشة أوعزوا إلى خولة بنت حكيم حيث حدثته بأمر حاجته إلى من ترعاه وتقضى حاجة بيته وتقوم على شأنه . فعرضت عليه العذراء عائشة بنت صديقه أبى بكر أو سودة بنت زمعة التى آمنت به وأسلمت وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها الذى مات وتركها وحيدة . . فقبل الرسول العزيز الزواج من الأخيرة التى كانت كبيرة السن ، ضامرة الجسد ، ليس فيها مشتهى للرجال ولكنها كانت مؤمنة مجاهدة من الصابرات .

هذا هو زواج الرسول إذ أن ماتم بعد ذلك من زواج إنما كان يرمى

إلى تحقيق هدف أو كسب للدين ، وقد أمكن أن يقف العلم الحديث على أسباب ما جد بعد ذلك من زواج .

فالمشاهد فى العصر الحديث أن قادة الأمم والزعماء يحاولون أن يرتبطوا مع وزرائهم وقوادهم برباط المصاهرة . بل إن قادة الأمم المختلفة يجعلون المصاهرة بينهم من وسائل التقريب بين الأمم بعضها ببعض . وكان هذا الهدف من أول الأهداف التى سعى الرسول الكريم لتحقيقها . . فلربط رجال المسلمين الأول بعضهم ببعض تزوج الرسول بعائشة بنت وزيره الأول أبى بكر ، ثم تزوج بحفصة بنت عمر عندما مات زوجها ، ولهذا السبب نفسه زوج الرسول بنته رقية لعثمان بن عفان فلما ماتت زوجه بعدها أختها أم كلثوم . . . كما زوج ابنته فاطمة لعلى بن أبى طالب . وهكذا جمعت المصاهرة سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم برجاله الأوائل . . أبى بكر وعثمان وعمر وعلى . . أقوى رجال الإسلام وأول من أسلموا .

وهناك هدف آخر هدف إليه الرسول بزواجه . . فقد كان من عادة العرب إذا مات الرجل ذهب إخوانه وأصدقاؤه إلى أرملته يواسونها ويعرض أقربهم إلى زوجها مرتبة أن يتزوجها إكراماً لزوجها وذلك بالإشراف على شئون بيته .وقد أبلى من المسلمين فى الحروب رجال تحدث التاريخ عما قاموا به فى سبيل الله ورسوله ، ومن هؤلاء المسلمين من لقى حتفه فى سبيل دين الله . فتزوج الرسول من بعض نساء قتلى المسلمين ممن تحدث التاريخ عن جليل أعمالهم ولم يجدن أزواجاً لهن إما لكبر سنهن أو كثرة أولادهن ، فزاد ذلك من تعلق المسلمين برسولهم ورفع من روحهم المعنوية وأصبح المسلم يعرف أنه لو قتل فى سبيل الله لم يعدم رجلا يشرف على بيته

ولم يعدم أباً يحنو على أولاده . . ولو لم يجد من المسلمين لوجد نبي الله نفسه . . بل حبب ذلك الإسلام لغير المسلمين فأسلموا . . ولذلك تزوج الرسول من زينب أم المساكين زوجة عبد الله بن جحش أحد أمراء المسلمين الذى قتل فى وقعة أحد وكان على رأس أول سرية خرجت للغزو فى الإسلام . كما تزوج للسبب نفسه هنداً أم سلمة زوجة أبى سلمة أحد مهاجرى المسلمين إلى الحبشة الذى أبلى بلاء حسناً فى الدعوة فلما مات تقدم لخطبتها كبار العرب ومنهم أبو بكر وعمر فرفضت حيث قالت : « إنى امرأة مسنة وأم أيتام » ، وعز على الرسول أن تظل هذه السيدة حزينة وحيدة فتزوجها .

وهناك تشريع هدف إليه الإسلام فى زواج الرسول . فيقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الحجرات :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ »

وقد كان الرق منتشراً فى بلاد العرب فدعا الإسلام إلى العتق وتحرير الرقيق ، وكان للسيدة خديجة زوجة النبى عبد اسمه زيد وهبته لسيدنا محمد ، وكان زيد من أوائل الذين آمنوا بالدعوة وقربه الرسول إليه حتى كانوا يطلقون عليه اسم زيد بن محمد . هذا العبد الذى تحرر هل من بين العرب من يجرؤ فيعتبره نداً له فيزوجه من قريبته مثلا؟

لقد طلب زيد يوماً من الرسول أن يزوجه زينب بنت جحش

ابنة عمة الرسول ، فوافق الرسول ولكن هذا الزواج وجد معارضة من زينب نفسها ومن أسرتها ، وفى ذلك نزل القرآن إذ يقول الله تعالى فى سورة الأحزاب :

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا »

وبذلك تزوج العبد السابق من سيدة قريش سليلة المجد والحسب ، وكان ذلك تشريعاً جديداً للمسلمين وعملا بقول الله تعالى فى سورة البقرة :

« وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ »

ولم يدم ذلك الزواج طويلا . . فطلب زيد الطلاق من زينب فكان رد النبى كما جاء فى سورة الأحزاب :

« أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ »

وأراد الله سبحانه وتعالى تشريعاً جديداً ، إذ كانت التقاليد لا تجيز للمدعى أن يتزوج ممن كانت زوجاً لمن ادعاه ، كما لا تجيز للمتبنى أن يتزوج ممن كانت زوجاً لمتبناه ، ولا للسيد أن يتزوج ممن كانت زوجة عبد . . فنهى عن ذلك الله إذ يقول فى سورة الأحزاب :

« وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ »

لذلك أمر الله بأن يكون الرسول القدوة للناس فى ذلك ؛ وخشى فى نفسه أن يقول عنه الناس تزوج من كانت زوجاً لدعيه وكان يخفى فى

نفسه تنافر الزوجين وكراهيتهما بعضهما لبعض حتى لا يتزوجها ، ولكن الله مبدى هذا التنافر فيقول المولى عز وجل : « وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا » .

هذه هى حكمة زواج الرسول من زينب بنت جحش وهى بعيدة كل البعد عما يرويه خصوم الإسلام من أن الرسول كان قد ذهب لزيارة زوجها فاستهواه جمالها فطلب من زوجها أن يطلقها ليتزوجها ... وأين كان الرسول يوم أن كانت زينب عذراء ، وهى ابنة عمته التى كان يعرفها تماماً ؟ ؟ أولم تستهوه محاسنها وهى عذراء ؟ ؟ ولكنه الحقد على الإسلام ونبى الإسلام الذى يجعل الخصوم يفترون . .

وهناك حكم فى زواج الرسول إذ حقق به أهدافاً سياسية ، فعندما هزم المسلمون بنى قريظة بعد حصار طويل كانت ريحانة بنت عمرو زوجة الحكم أحد كبار رجال بنى قريظة من نصيب الرسول فى الغنائم فعرض الرسول عليها الإسلام فأسلمت ، وتزوجها ، وكان لزواجه منها أكبر الأثر فى نشر الدعوة للإسلام بين قبائل اليهود الذين هدأت ثائرتهم ، وهز مشاعرهم إكرام الرسول لإحدى سيداتهم بزواجه منها . وكذلك عندما انتصر المسلمون فى غزوة بنى المصطلق ، كانت جويرية بنت الحارث بنت سيد قومها من نصيب ثابت بن قيس الذى طلب منها أن تفتدى نفسها فاستعانت بالرسول على فك أسرها . . فعرض عليها الإسلام وأسلمت

فتزوجها وكان لذلك أثره فى نفس بنى المصطلق الذين ارتبطوا بهذا الزواج مع الرسول فدخلوا جميعاً فى الإسلام .

ولما انتصر المسلمون على يهود خيبر كانت صفية بنت حيي بن أخطب ضمن الأسرى ، فأعتقها الرسول وتزوجها ، وهذا ما يفعله الفاتحون من ذوى الرحمة إذ يتزوجون من بنات الملوك والعظماء فى الدول المهزومة حفظاً لكرامتهم وتخفيفاً من وقع الهزيمة عليهم .

وبعد أن انتشر الإسلام فى جزيرة العرب ، أرسل الرسول إلى النجاشى ملك الحبشة الذى آوى المسلمين المهاجرين وأكرمهم يطلب أن يكون النجاشى رسوله فى طلب الزواج من أم حبيبة ، رملة بنت أبى سفيان بعد أن مات زوجها عبيد الله بن جحش الذى كان قد أسلم ثم ارتد وبقيت زوجته مسلمة صادقة العقيدة . وكانت لفتة كريمة لسيدة مسلمة ارتد زوجها المسلم وتمسكت بدينها تحافظ عليه وتقيم شعائره فى دولة غريبة . كما كانت حكمة سياسية بارعة ، إذ أن أم حبيبة بنتُ أبى سفيان ، عدو الرسول الألد وأكبر مهاجمى الإسلام . وبزواجه منها انتصر على آخر معقل من معاقل الكفر والشرك فى قريش انتصاراً دون إراقة دماء وبدون حرب أو اعتداء .

وعندما بدأ الرسول فى نشر الدعوة إلى الخارج ، أرسل رسله إلى الملوك والأمراء ، منهم هرقل وكسرى والمقوقس ، يدعوهم إلى الإسلام ، فكان من ضمن رد المقوقس عظيم القبط فى مصر أن أرسل للرسول هدايا فيها جاريتان ، إحداهما ماريا القبطية التى تزوجها الرسول ، وسيرين التى أهداها إلى حسان بن ثابت .

ولما أحل للنبي الدخول إلى مكة وزيارة الكعبة الشريفة بعد صلح الحديبية دخل الرسول على رأس المسلمين فى عمرة القضاء، وظلوا أياماً ثلاثة هي ما اتفق عليه فى المعاهدة، وكان المسلمون من الكثرة والقوة والخلق الكريم: لا يشربون خمراً ولا يأتون معصية ولا يتقاتلون على شراب أو طعام . . ولا يعبدون أحجاراً أو أوثاناً . . . إنما دعوتهم الله أكبر الله أكبر . . . زلزل ذلك عقائد أهل مكة من الكفار، فأسلم ضمن من أسلم ميمونة بنت الحارث خالة خالد بن الوليد فخطبها الرسول وهو ينظر إلى أن زواجه منها تكريم لها وأى تكريم، وفتح لعائلتها التى كانت وما زالت على الكفر . وقد صحت فراسة الرسول كما كانت تصح دائماً فأسلم بعدها خالد بن الوليد الذى هدم العزى وقتل سدنتها، وأسلم عمرو بن العاص الذى هدم سواع، وكذلك أسلم عثمان بن طلحة حارس الكعبة، وبإسلامهم أسلم كثير من أهل مكة .

هذا هو زواج الرسول، فهل فيه ما يثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج لحبه للنساء ؟ ؟ وهل فى أزواجه كلهن واحدة كان جمالها أو شبابها سبباً فى زواجه منها ؟ ؟ وهذه هى الأهداف التى هدف إليها الرسول من زواجه لمصلحة الدعوة والدين، ولذلك فقد أحل الله له ما لم يحله لغيره فيقول الخبير العليم فى سورة الأحزاب :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى

هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ »

ولما تحقق الهدف ،وانتفت الأسباب التى من أجلها أحل الله لنبيه تعدد زوجاته ،نزل قول الله سبحانه فى سورة الأحزاب :

« لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً »

هذا هو زواج الرسول . . فهل فيه ما يثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج بأكثر من واحدة لحبه للنساء ؟ . . . وهل كان بين كل هذه الزوجات عذراء سوى عائشة ؟ أوليس قول خصوم الإسلام بعد ذلك افتراء على النبى وعلى الحق أى افتراء ؟ ؟

هذا هو محمد نبى الإسلام ، الذى لقب منذ طفولته بالأمين واشتهر بين قومه بالصدق والعفة . . والخلق العظيم ، وصدق الله سبحانه الذى يقول عنه : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ »

وتقول عن أخلاقه السيدة خديجة فى حديث لها معه : « والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

أما رأى الخصوم فيه فقد ورد فى دائرة المعارف البريطانية عنه : « كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة وأكثرها نجاحاً وتوفيقاً » .

ويقول دينسون فى كتابه « الحركات كأساس للحضارة » :

« وفى القرنين الخامس والسادس، كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى قامت بعد جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ القبائل تتحارب وتتناحر، لا قانون ولا نظام؛ أما النظم التى خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله واقفة تترنح، وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه » .

أما جيمس متشنر فيقول عن الرسول الكريم سيدنا محمد : « إن محمداً هذا الرجل الملهم، الذى أقام الإسلام، ولد حوالى ٥٧٠ ميلادية فى قبيلة عربية تعبد الأصنام؛ ولد يتيماً محباً للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين . وقد أحدث محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة فى شبه الجزيرة العربية وفى الشرق كله . فقد حطم الأصنام بيديه، وأقام ديناً يدعو إلى الله وحده . ورفع عن المرأة قيد العبودية التى فرضتها تقاليد الصحراء ونادى بالعدالة الاجتماعية . وقد عرض عليه فى آخر أيامه أن يكون حاكماً بأمره، أو قديساً، ولكنه أصر على أنه ليس إلا عبداً من عباد الله . أرسله إلى العالم منذراً وبشيراً » .

ويقول الفيلسوف كارليل فى كتابه « الأبطال » عن سيدنا محمد

صلى الله عليه وسلم: « وإنى لأحب محمداً، لبراءة طبعه من الرياء والتصنع، ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى، لا يعول إلا على نفسه، ولا يدعى ما ليس فيه ولكنه لم يكن ذليلا ضرعاً. هو رجل عظيم وربكم، وإلا فما كان ملاقياً من أولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراماً وإكباراً وإعظاماً. وما كان ممكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثاً وعشرين حجة، وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله. لقد كان فى هؤلاء العرب جفاء وغلظة، وبادرة وعجرفية، وكانوا حماة الأنوف وأباة الضيم، وعر المقادة صعاب الشكيمة. فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلكم وأيم الله بطل كبير. ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل، لما خضعوا له ولا أذعنوا. وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه، لما كان مصيباً فى طاعتهم مقدار ما ناله فى ثوبه المرقع بيده. فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال ».

وفى وسط الاضطرابات التى كانت تسود العالم إبان الحرب العالمية الأخيرة وتنافر الدول وتناحر الشعوب يقول الكاتب الإنجليزى المعروف برنارد شو: « إنه لو تولى العالم الأوربى رجل كمحمد لشفاه من علله كافة ».

ومما نشرته الصحف فى الاحتفال بذكرى المولد النبوى خطبة للأستاذ فارس الخورى قال فيها « إن محمداً أعظم عظماء العالم، ولم يجد الدهر بعد بمثله والدين الذى جاء به أوفى الأديان وأتمها وأكملها ».

ولو استطردنا فى بيان ما قاله المنصفون من علماء الغرب والشرق عن

سيد الخلق وخاتم الرسل والأنبياء لما كفى ذلك المجلدات وآلاف الكتب والصحف .

ويكفى أن الله سبحانه يقول عنه : «وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ»
(سورة الأنبياء : ١٠٧)

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » (سورة آل عمران : ١٥٩)

« لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (سورة الأيعال : ١٢٨)

« أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ » (سورة الانشراح)

معجزة نبي الإسلام

لما كانت الدعوة إلى العمل الصالح تجد دائماً معارضة من القوم الذين ضل سعيهم وانغمست فى الشهوات نفوسهم ، وأعمى حب الدنيا بصيرتهم ، أيد الله الرسل بمعجزات حتى يؤمن القوم بأنهم رسل من الله . . ولا سيما أن الرسل والأنبياء قد أرسلهم الله كلما تنكب الناس الطريق السوى . . وأبعدهم سوء أعمالهم عن التعرف على طريق الله . . وبالرغم من ذلك فقد حورب الرسل ولقوا من أقوامهم الإعراض والتكذيب . .

« لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ »

(سورة المائدة : ٧٠)

« يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ »

(سورة يس : ٣٠)

وكان لا بد أن تكون معجزات الرسل والأنبياء من جنس ما يعرفه القوم حتى يمكنهم أن يبحثوا ويطمئنوا ويقتنعوا . . وحتى لا يقولوا عنهم سحرة أو مجانين . . .

فى زمن سيدنا موسى كان السحر متفشياً وقد برع فيه القوم . . فكانت منتديات السحر تعقد فى أعيادهم وأفراحهم . . ويأتون من صنوف السحر ما يثير الإعجاب ويحير الألباب . . . وكان من أشهر سحرهم حبالهم التى يلقونها على الأرض فتهتز وتنساب كأنها الحيات والثعابين . . . فلذلك كان من ضمن معجزات سيدنا موسى بل أشهرها . . عصاه . . التى كان إذا ألقاها على حبالهم اهتزت ولقفتها . . وحاولوا أن يفسدوا ما قد يكون فيها من سحر فلم يمكن . . فألقى السحرة ساجدين . . وآمنوا برب موسى . . رب العالمين .

« قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ

عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ » .

(سورة الشعراء : ٤٣ – ٤٨)

واشتهر زمن سيدنا عيسى بالتقدم الطبي ، فبرع الأطباء فى علاج المرضى ، واكتشفوا علاجاً لأمراض لم يكن لها أى علاج من قبل . . وجاءت معجزات سيدنا عيسى من نفس النوع .. فكان يبرئ الأكمه والأبرص اللذين لم يصل طبهم إلى علاجهما من قبل .. بل تجاوز ذلك إلى ما لم يصل إليه الطب ، فإذا كان الطب هو محاولة إبعاد الموت إلى حين . . . فقد أحيا سيدنا عيسى الموتى . . وخلق طيراً من الطين . . .

« إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » .

(سورة المائدة : ١١٠)

وكذلك كانت معجزة نبى الإسلام من جنس ما اشتهر به

قومه . . إلا أنها تختلف عن باقى معجزات الرسل والأنبياء فى أن معجزاتهم كانت وقتية رآها الناس فى أوقاتهم ثم تناقلها الرواة من بعدهم ، وتحدثوا عنها . . أما معجزة سيدنا محمد فقد شاء الله أن تكون باقية تطاول الدهر وتنازع الخلود . . فهى بين أيدينا . . كما كانت بين يدى من سبقونا . . وكما ستظل بين أيدى من يأتون بعدنا . . معجزة لا يملك المطلع عليها إلا أن يؤمن بنبى الإسلام . . ويحمد الله الذى أرسله رحمة للعالمين . . .

كان سيدنا محمد — وقد صرفه الله عن لهو الشباب وآثامه — لا يقضى أوقات فراغه إلا متأملا دنياه الواسعة التى يعيش فيها . . الصحراء والسماء والنجوم . . وفى كل عام يذهب إلى غار بأعلى جبل حراء . . فى الشمال من مكة يقضى فيه طوال شهر رمضان بعيداً عن الحياة . . لا تربطه بها إلا آيات الفكر التى تطوف به بين السموات والأرض . . يحلق حيث يرى بدائع صنع هذا الكون .. بنجومه وأفلاكه وشمسه وقمره . . أيامه ولياليه كلها تسير وفق نظام دقيق . . وهدف مقصود . . هذا الكون . . . أوجد من عدم ، وخلق من لا شىء ؟ وهذه الحياة أخلقت بغير غاية ؟ . . وهذا الثمر مختلفة ألوانه ومتنوعة أشكاله .. خلق من طين واحدويسقى بماء واحد .. لسدكافة الحاجات ... ويحقق عديد الأغراض . . أخلقه خالق أم وجد بلا خالق ؟ . . وهذا الإنسان من أوجده ؟ ومن علمه ؟ ومن خلق له العينين واللسان والشفتين ؟ ومن أماته ؟ وما هى حكمة حياته وحكمة مماته ؟ يا للجهل والجهالة ! . .

أيعبدون اللات والعزى وهبل ومناة ؟ أيعبدون أحجاراً خلقوها بأيديهم ؟ وماذا تفعل هذه الأوثان والأصنام ؟

ظل سيدنا محمد فى تأملاته . . عاماً بعد عام . . يتعبد وهو ينظر حواليه . . أيها الخالق الذى لابد أن يكون موجوداً . . اهدنى الصراط المستقيم ! . . فصار يرى فى منامه الرؤيا الصادقة التى يصبح فيراها أمامه .

وفى شهر رمضان من عام ٦١٠ ميلادية وفى السنة الحادية والأربعين من ميلاده الشريف ، جاءه الوحى فى صورة ملك بيده صحيفة ، فقال له اقرأ ، فيجيب محمد ما أقرأ . . فيحس كأن الملك يخنقه ، ويكررها ثلاثاً ثم يقول الملك :

« ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ . ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ . ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

فكانت أول آيات القرآن الكريم ، معجزة نبى الإسلام الخالدة نزلت بلغة العرب التى كانت قد وصلت إلى أعلى درجة من البلاغة والرقى والتقدم . . وكان الأدب والشعر والنثر مما تجمع من أجله المجالس وتعقد الندوات . . وتنشأ له الأسواق . . نزل عربياً بلغة العرب لا هو بالشعر ولا هو بالنثر ولا هو بالسجع ولا الخطابة . . .

وتوالى نزول آيات القرآن الكريم ، على حسب الحوادث ومقتضيات الحال ، وعلى حسب ما تحتاج إليه البشرية من تشريعات ، وتم نزوله فى نحو ثلاث وعشرين سنة ثلثاه فى مكة والثلث فى المدينة . . وكان آخر آياته :

« ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا » .

وقد بلغ عدد سور القرآن الكريم ١١٤ سورة ، وعدد آياته ٦٢٣٦ آية . . لم تحرف منها آية . . ولم يحذف منها لفظ . . ولم يزد عليها حرف . . وظل طوال الأربعة عشر قرناً كما سيظل إلى الأبد كنزاً يغترف منه كل طالب علم . . وكل طالب حكمة . . . وكل طالب فن . . . وكل من أراد أن يتخلق بالخلق الحسن .

توفى الرسول الكريم ، والقرآن فى صحف متفرقة كتبها كتاب الوحى . . وفى قلوب حافظيه ، وجمع أبو بكر هذه الصحف وأودعها عنده حتى جمعه عثمان بن عفان فى مصحف واحد . . هو المصحف الذى نقرأ فيه اليوم . . .

والقرآن الكريم معجزة ، كلما مر عليها الزمن ظهر للعالم مدى روعة ما اشتمل عليه من الإعجاز . . فهو فى الدرجة العالية من البلاغة التى لم يعهد مثلها فى تراكيب العرب ، وتقاصرت عنها درجات بلاغتهم . . وأساوبه غريب فى المطالع والمقاطع والفواصل ، حتى تحيرت فيه عقول العرب وهم أرباب الفصاحة والأقلام . . وقد تنبأ بأخبار حوادث كثيرة تحققت بعده . . كما أتى بأخبار القرون السالفة والأمم الهالكة والتى لم يكن لها تاريخ قيد بعد . . وأثبتت الكشوف الأثرية فى العصر الحديث صحة ما أتى به . . .

ومن إعجازه أن قارئه لا يسأمه ، وسامعه لا يمجه ، بل تكراره يوجب زيادة محبته ؛ وأنه سهل الحفظ على متعلميه ، فقد يسره الله للحفظ . ولعل الخشية التى تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم والهيبة التى تعترى تاليه وسامعه ، من الأدلة القوية على أنه من عند الله سبحانه وتعالى .

ويحوى القرآن أصول الدين والدنيا . . جمع تشريعات الدين وجمع مقومات الآخرة . . فيه علوم ظلت خافية حتى أوضح معناها التقدم العلمى الحديث . . ففيه أصول علم الحياة والصحة .. والصحة الوقائية . . والوراثة . . وما وراء الطبيعة . . والاقتصاد ، والهندسة ، والزراعة . . وغيره وغيره علاوة على ما فيه من آداب المرء وحسن الخلق :

ويكفى أن نورد بعض آراء علماء الغرب فى القرآن الكريم :

يقول الدكتور موريس الفرنسى : « إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الأزلية لبنى البشر وإنه كتاب لا ريب فيه » .

ويقول هنرى دى كاسترى : « إن القرآن يستولى على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب ، ولقد نزل على محمد دليلا على صدق رسالته » .

ويقول ألكس لوازون : « خلف محمد للعالم كتاباً هوآية البلاغة وسجل الأخلاق وهو كتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية ، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية » .

أما واشنطن إيروينج فيقول : « يحوى القرآن أسمى المبادئ وأكثرها فائدة وإخلاصاً » .

ويقول جوته : « إن تعاليم القرآن عملية ومطابقة للحاجات الفكرية » .

ومما قاله ليون : «حسب القرآن جلالة ومجداً ، أن الأربعة عشر قرناً التى مرت عليه لم تستطع أن تخفف ولو بعض الشيء من أسلوبه الذى لا يزال غضاً كأن عهده بالوجود أمس» .

ويقول جيمس متشنر فى مقال له : « لعل القرآن هو أكثر الكتب التى تقرأ فى العالم، وهو بكل تأكيد أيسرها حفظاً وأشدها أثراً فى الحياة اليومية لمن يؤمن به . فليس طويلا كالعهد القديم ، وهو مكتوب بأسلوب رفيع ، أقرب إلى الشعر منه إلى النثر ، ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه وتزداد إيماناً وسمواً . وأوزانه ومقاطعه كثيراً ما قورنت بدقات الطبول وأصداء الطبيعة ، والأغانى المعروفة فى الجماعات القديمة .

ومن الملاحظ أن القرآن يتسم بطابع عملى فيما يتعلق بالمعاملات بين الناس . وهذا التوفيق بين عبادة الإله الواحد وبين التعاليم العملية ، جعل القرآن كتاباً فريداً ووحدة متماسكة » .

هذا هو القرآن الكريم معجزة نبى الإسلام ، وصدق الله العظيم الذى يقول عنه :

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » .

(سورة البقرة : ٢٣)

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

(سورة النساء : ٨٢)

قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ على أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

(سورة الإسراء : ٨٨)

« لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

(سورة الحشر : ٢١)

« وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ » .

(سورة يونس : ٣٧ ، ٣٨)

من مزايا الإسلام

الإسلام دين علم وعمل

ليست مصادفة أن تكون أول كلمات القرآن الكريم أمراً بالدعوة إلى القراءة . .وأن تدعو أول آياته إلى العلم . . فإن أول ما نزل من الآيات الشريفة هى :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وهى دعوة صريحة للتعلم القراءة والكتابة . . بل وجهت نظر الإنسان إلى أدق العلوم . . علم الحياة وخلق الإنسان .

وليست مصادفة أن نقرأ فى سورة « المؤمنون » قول الله سبحانه وتعالى :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا » .

ثم بعد مئات السنين يقرر العلم الحديث ، بعد الاستعانة بالمجاهر وأجهزة التصوير والأشعة ، أن الترتيب المنصوص عليه فى هذه السورة هو ترتيب خلق الجنين ، والأكثر من هذا أنه حتى لم يمكن الاستعاضة

عن ألفاظ القرآن بغيرها . فهى الألفاظ التى تدل على المعنى بغير لبس أو غموض. أو زيادة أو نقصان . . . ثم تتابعُ الآيات التى توجه النظر إلى دقائق خلق الإنسان فيقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الطارق:

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ».

ثم يذهب القرآن بعيداً فى التغلغل فى علم وراثة الصفات فى خلق الإنسان فيقول المولى فى سورة الإنسان :

« إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ».

أفليس ذلك دعوة صريحة من الله عز وجل للمسلمين بأن يتعلموا ؟

وليست مصادفة كذلك أن تتكرر فى القرآن الكريم آيات الدعوة الصريحة إلى النظر فى خلق السماوات والأرض وما فيها :

« قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ » .

(سورة يونس: ١٠١)

« أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ » .

(سورة الأعراف : ١٨٥)

« أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ » .

(سورة ق : ٦)

والدعوة إلى النظر فى خلق النبات ومراقبة نموه ودراسة حياته إذ يقول المولى فى سورة الأنعام :

« وَهُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

وفى النظر إلى الحيوان وبدائع صنع الله فى خلقه يقول المولى فى سورة النحل :

« وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ » .

وتتوالى الآيات الداعية إلى توجيه نظر المسلم إلى البحث والدرس والتأمل فى مختلف العلوم فى أكثر سور القرآن .

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَآئِقَ غُلْبًا وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ » .

(سورة عبس : ٢٤)

« أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ » .

(سورة الشعراء : ٣)

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ » .

(سورة الرعد : ٤١)

وهكذا تتوالى الآيات الداعية إلى توجيه نظر المسلم إلى البحث والدرس والتأمل فى كل ما يحيط بالإنسان وما يراه، بل تتعمق الدعوة إلى العلم فيدعو الله سبحانه وتعالى المسلمين إلى السير والهجرة فى كافة أنحاء الأرض للدرس والبحث فيقول جل القائل فى سورة العنكبوت : « قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ » .

بل إن الإسلام قد تميز بأنه لم يفرض عقائده على الناس فرضاً، بل ناقش .. وعرض .. وأثار الفكر .. والتفكر .. وطالب بالبحث والتقصى حتى يقتنع المتشكك ويطمئن الباحث على أن العقائد التى دعا إليها الإسلام قائمة على أساس من العلم ... حتى حينما دعا إلى الإيمان بالله الواحد الأحد كانت دعوته قائمة على طريق المنطق والعقل والمناقشة..

فلإثبات وجود الله يقول القرآن الكريم فى سورة الواقعة :

« أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ، ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ »

« أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ، ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ »

« أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ، ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ » .

« أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ، ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ » .

« فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ » .

ثم يحاج القرآن هؤلاء الذين يتخذون من دون الله أرباباً فيظهر باطل ما يعبدون بالمنطق والعقل فيقول المولى فى سورة فاطر :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ ٱلظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلا غُرُوراً » .

ويقول فى سورة الحج : يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّه لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لايَسْتَنْقِذُوه مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوب » .

وكذلك فى توحيد الله إذ يؤكد وحدانيته بالأدلة فيقول فى سورة المؤمنون : « مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ » .

وفى سورة الأنبياء :

« لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رب ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » .

وفى بث عقيدة البعث والحياة بعد الموت يسوق القرآن البراهين والأدلة

التى تقع أمام كل نظر فى كل حين وأوان فيقول فى سورة مريم :

« وَيَقُولُ الْإِنسَـٰنُ ءَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا » .

وفى سورة يس :

« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ وقَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيَ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

ويقرر القرآن أن الله سبحانه وتعالى علم الإنسان فيقول فى سورة الرحمن : « خَلَقَ الإِنْسَانَ علَّمَه الْبيان » . وفى سورة «العلق : « عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » وفى سورة البقرة : « وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

كما يقرر أن الله أرسل رسله لتعليم البشر فى سورة البقرة :

« كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ » .

ويفضل الإسلام العلماء على غيرهم وقد ذكرهم القرآن فى مواضع إكرام كثيرة فى سورة المجادلة يقول الله سبحانه : « يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

ءامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ » .

وفى سورة الزمر : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

وفى سورة البقرة : « يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً » .

وفى سورة العنكبوت : « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » .

وفى سورة فاطر : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُاْ » .

وفى سورة سبأ : « وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ » .

والأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التى تدعو إلى طلب العلم كثيرة ، منها : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، « اطلبوا العلم ولو بالصين » ، « لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير من أن تصلى مائة راكعة » ، « لا ينبغى لجاهل أن يسكت على جهله ولا لعالم أن يسكت على علمه » ، « من جاءه الموت وهو يطلب لعلم ليحيي به الإسلام فبينه وبين الأنبياء فى الجنة درجة واحدة » .

أما أحاديثه عن العلماء فمنها : « أفضل الناس المؤمن العالم الذى إن احتيج إليه نفع وإن استغنى عنه أغنى نفسه » ، « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ، أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل ،

وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل » .

وكما دعا الإسلام إلى العلم . . فقد دعا إلى العمل وحبذ الاجتهاد والإخلاص فيه ، كما حارب البطالة والخمول والكسل ، والآيات التى تدعو إلى العمل كثيرة فيأمر الله سبحانه وتعالى بالعمل فيقول المولى جل شأنه فى سورة التوبة :

« وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ » .

وجعل الله العمل الصالح بعد الإيمان بالله وبشر صاحبه بالمغفرة والأجر العظيم فى سورة المائدة يقول المولى عز وجل : « مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »

وفى سورة غافر : « مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ » :

وفى سورة البقرة : « إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ » .

والآيات المشابهة عديدة تكررت فى معظم سور القرآن الكريم ، بل ذكر القرآن فى أكثر من موضع أن الأنبياء كانوا يصنعون بأيديهم صناعات عديدة علمها لهم الله . . فى سورة الأنبياء يقول الله عن نبيه داوود :

« وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ » .

وفى سورة سبأ :

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ، أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

ويقول سبحانه وتعالى عن نبيه نوح :

« وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ » .

وقد دعا القرآن الكريم فى أكثر من سورة إلى السعى فى سبيل الرزق ، ففى سورة الجمعة يأمر الله المسلمين إذا ما انتهت صلاتهم أن يسعوا على أرزاقهم :

« فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

كما يقرر القرآن أن الله سبحانه إذا كان قد خلق الليل للراحة فالنهار للعمل وطلب الرزق ففى سورة الإسراء :

« وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ ٱللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » .

وفى سورة الفرقان : « وهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاساً وٱلنَّوْمَ سُبَاتاً وجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً » .

وفى سورة النبأ : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً » .

ومما يروى أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً ذات يوم مع أصحابه فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى فقالوا : ويح هذا ولو كان شبابه وجلده فى سبيل الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : لاتقولوا هذا فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى تفاخراً أو تكاثراً فهو فى سبيل الشيطان . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم فى طلب المعيشة » ، « من طلب الدنيا حلالا وتعففاً عن المسألة وسعياً على عياله وتعطفاً على جاره لقى الله ووجهه كالقمر ليلة البدر » .

هذا هو الإسلام . . .

أليس يحق أن يقال إن الإسلام دين علم وعمل ؟

الإسلام دين كرامة وتحرر

قرر الإسلام للإنسان آدميته . . واحترم وجوده . . وحرر المخلوق من العبودية لأى إله إلا الله . . وقد أخلص الإسلام العبادة لله وحده . . وحررها من كل شرك أو زيف . . فدعا إلى أن الله واحد لا شريك له . .

« وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ » .

(سورة المائدة : ٧٣)

« وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ » .

(سورة البقرة : ١٦٣)

« إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً » .

(سورة النساء : ١٧١)

« فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » .

(سورة البقرة : ٢٢)

ووضع الإسلام الرسل فى مكانهم . . إنهم بشر يوحى إليهم . . لا يعلمون غيباً ولا يملكون للناس ولا لأنفسهم خيراً . . أو شراً . . ولا يدبرون أمراً . .

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » .

(سورة الكهف : ١١٠)

« قُلْ لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَآئِنُ ٱللهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ » .

(سورة الأنعام : ٥٠)

« قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

(سورة الأعراف : ١٨٨)

وَلِلّٰهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ » .

(سورة هود : ١٢٣)

ويحرر الإسلام عقيدة الإيمان من أى زيف أو شرك فينفى وجود الوساطة بين العبد وربه . . ويحرر الإنسان من أية سيطرة لكائن مّا على العلاقة بين الله والإنسان . . حتى إن المسلمين عندما سألوا رسول الله عن أشياء أوحى الله سبحانه بالإجابة عنها على لسان الرسول . . فنرى فى القرآن الكريم . .

« يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ » .

(سورة البقرة : ١٨٩)

« يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَآ أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ »

« يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ » .

« يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ » .

« وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ » .

« وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ » .

« وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى » .

(سورة البقرة : ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢)

« يَسْئَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ » .

(سورة المائدة : ٤)

« يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى » .

(سورة الأعراف : ١٨٧)

« يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ » .

(سورة الأعراف : ١٨٧)

« يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ » .

(سورة الأنفال : ١)

« وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » .

(سورة الإسراء : ٨٥)

« وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا » .

(سورة الكهف : ٨٣)

« وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا » .
(سورة طه : ١٠٥)

إلا عندما سألوه عن الله ، لم يترك سبحانه وتعالى للرسول أن تكون الإجابة عن لسانه كما سبق فى سؤالهم ، بل أجاب الله — عز شأنه — مباشرة حتى تنتفى الوساطة بينه وبين عباده فيقول عز القائل فى سورة البقرة :

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » .

وهكذا حرر الإسلام عقيدة التوحيد من كل شرك .. أو شبهة . . كما حرر الإنسان من أى سلطة عليه فى علاقته بربه . . .

وكذلك حرر الإسلام الإنسان من الرق والاستعباد . . وكان الرق أمراً شائعاً منذ قديم الزمان ولم يذكر التاريخ بداية استعباد الإنسان لأخيه الإنسان واسترقاقه . . إلا أنه عرف أن الهند كانت أقدم حكمها تتمثل فى حكمة تنص على أنه من ليس برهمياً فهو عبد للبرهمى . . وأن الفراعنة منذ آلاف السنين بنوا الأهرام بسواعد الرقيق . وكانت أسباب الرق كثيرة منها الأسر فى الحروب ، فكانت الشعوب تتخذ من حروبها وسائل لاسترقاق المهزومين فيأسرون الأسرى ويبيعونهم صبياناً وبنات ، رجالا ونساء . . وكذلك كان من أسباب الرق الخطف والسبي . . والأسر فى الغزوات الدينية .

والرقيق يعتبر مملوكاً لسيده الذى اشتراه كمتاعه ، له الحق فى بيعه . . أو قتله . . وإذا كانت أنثى فله أن يستمتع بها كيف شاء . .

وليس للرقيق قبل سيده . . ولا قبل المجموعة . . ولا الدولة . . أى حق . . بل عليه كل الواجبات . . مشروعة أو غير مشروعة . . كانت فى الاستطاعة . . أو لم تكن . . . بل بلغ من الاستخفاف بأمر هؤلاء الرقيق أن كانت الفلاسفة والحكماء يقررون أن أرواح الرقيق غير خالدة !

وجاء الإسلام فحرر البشرية من عبودية الرق . . أوصى بتحرير الرقيق . . وكما هى سنة الإسلام بعدم الأخذ بمبدأ الطفرة . . فقد عالج الرق والرقيق بأن خير أسرى الغزو بين الإسلام أو الفدية . ثم جعل تحرير الرقاب من كفارات الأخطاء . . والفدية لأمور كثيرة . . فيقول الله فى سورة المجادلة : « وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

وفى سورة المائدة : « لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » .

ثم يوصى الإسلام بحسن معاملة ما بقى لدى الناس من رقيق فيقول فى سورة التوبة : « إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى

سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

وفى سورة النساء : « وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِين وَالْجَارِذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وما ملكَتْ أيمانكم » .

ويسير الإسلام قدماً فى تحريره للبشر فيحرر المرأة من جور الرجل.. تحرراً تامًّا . . فنى الجاهلية كانوا يعاملون المرأة على أنهاسقط متاع . . فهى لا تشترك فى الحرب كالرجال ولا تدفع الأذى عن قبيلتها بل هى مجلبة له . . بما قد تسببه من عار . . لذلك كان إذا بلغ الرجل منهم أن زوجته ولدت له بنتاً غضب وحزن . .ويقول فى ذلك القرآن الكريم فى سورة النحل :

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » .

وإذا كان فى الرجل حمية الجاهلية . . أو كانت المولودة دميمة أو أمها مكروهة منه . . فإنه يدفن هذه المولودة حية . . وكانت طريقة وأد البنات كما يقول ابن عباس رضى الله عنه : « كانت الحوامل إذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأسها فإذا كان المولود أنثى قذفت بها فى الحفرة وإذا كان ذكراً استبقته فى حنان وعزة » . كما كان هناك طريقة أخرى للوأد وهى أن الرجل يترك البنت حتى السادسة من

سنها فإن أراد التخلص منها قال لأمها طيبيها وزينيها . . ثم يذهب إلى بئر حفرها فى الصحراء ويقول لها انظرى فى هذا البئر ثم يأتى من خلفها ويدفعها فى البئر ويهيل عليها التراب . . . فحرم القرآن قتل البنات فيقول فى سورة التكوير :

« وإذا المَوْءودَةُ سُئِلَتْ بِأيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » .

وفى سورة الإسراء : « وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا » .

ومنح الإسلام للمرأة حقوقاً حتى ساوى بينها وبين الرجال فى الحقوق ، وبذلك كان الإسلام هو النظام الأول الذى أخذ بيد المرأة من وهدتها إلى حيث جعل لها ما للرجل . . وعليها ما عليه . . . إلا ما زاد للرجل فى سبيل تبعات الإنفاق عليها ومراعاة صالحها فيقول المولى فى سورة النساء

« يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ » .

وفى سورة البقرة : « ولَهُنَّ مثلُ الَّذِى عليهِنَّ بالمعرُوفِ وللرِّجالِ عليهِنَّ درَجة » .

ولقد حاول خصوم الإسلام أن يجعلوا من مبدأ تعدد الزوجات وإباحته فى الإسلام هدفاً يحاولون أن يحاربوه به. . فكثيراً ما قالوا إن الإسلام يهدر كرامة الزوجة حين أباح للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ويزيد من النسل الذى يؤدى إلى الفقر والعوز .

ولعل العلم الحديث قد أفصح عن الأهداف الإنسانية والعمرانية التى توخاها الإسلام فى تعاليمه بالنسبة إلى سماحه بالزواج من أكثر من

واحدة . . . فقد قرر أساتذة علم الاجتماع أمثال جينزبرج وستر مارك أن تعدد الزوجات كان النظام المتبع فى الشعوب المتمدينة فى حين كان نظام الزوجة الواحدة هو النظام المتبع عند الشعوب المتأخرة . وإن الشعوب التى كانت تحرم الزواج بأكثر من واحدة إنما كانت تتبع تقاليد لا تتصل بالدين من قريب أو بعيد ، كما أن الشعوب التى أجازت الزواج بأكثر من واحدة إنما أجازته طبقاً لما رأت فيه من فوائد اقتصادية أو عمرانية دون نظر كذلك إلى الدين . . فلم يرد فى الإنجيل نص صريح يدل على تحريم الزواج بأكثر من واحدة . وإن الإسلام فى إباحته تعدد الزوجات قد أباحه فى حدود بعينها ولظروف حددها . . وبقيود تجعل من العسير الأخذ به إلا فى حالات اضطرارية . .

يثبت علم الإحصاء أن نسبة الوفيات فى الذكور أكثر منها فى الإناث وذلك من ساعات الولادة حتى أول مراحل الشباب . . الأمر الذى يسبب زيادة نسبة الأحياء من الإناث على الذكور . . وفى طور الشباب تظل النسبة كذلك محفوظة إذ يموت من الشبان أكثر من الشابات. . وذلك يرجع إلى الحروب أولا التى تكون نسبة الوفيات فيها قتيل واحدة لكل أربعة آلاف قتيل. . ويرجع كذلك إلى أخطار العمل فى المصانع والمعامل نجد الوفيات بين الشبان أكثر قطعاً مما هى بين الشابات . . وكذلك بسبب التزاحم فى طلب الرزق من حوادث تزيد كذلك وفيات الشبان عن الإناث . . وكافة الأعمال التى تنتج الأمراض الخطيرة والموت المفاجئ والحوادث القاتلة يقوم بها الشبان لا الفتيات .. كرجال المطافئ .. والغواصون ورجال الإنقاذ ورجال الملاحة وغيرهم . . مما يجعل نسبة الأحياء

من الشابات أكثر من الشبان . . . الأمر الذى يقطع بزيادة عددهن عن عدد الشبان .

وإذا افترضنا جدلاأن جيلامن الأجيال لسبب أو لغيره انعدمت فيه الحرب والحوادث وتساوت نسبة الأحياء بين الذكور والإناث فى العمر الواحد حتى مرحلة الشباب ، فإن كل شابة تكون صالحة للزواج بل فى انتظاره ابتداء من سن البلوغ ، فى حين أن الذى يصلح للزواج من الشبان ويطلبونه نسبة تقل كثيراً عن الربع ، لأسباب قد تكون تعليمية ، إذ أن الطالب يدرس إلى سن تقارب الخامسة والعشرين ،وبعد انتهائها لا يقبل على الزواج إلا بعد سنوات . . فى حين أن زميلته فى العمر تكون قد بلغت الثلاثين عاماً ، وتكون قد كبرت وأصبحت من المتخلفات عن الزواج ، وتصبح من تصلح كزوجة له عشرات من الشابات تبدأ سنهن من السادسة عشرة إلى الثلاثين . . وقد يصرف الشبان عن الزواج أسباب معيشية . . فلا يزيد الشبان الذين تمكنهم حالتهم الاقتصادية من الزواج على الربع بأي حال ويبقى ثلاثة أرباعهم بلا زواج . . ومعنى ذلك أن تظل ثلاثة أرباع الشابات بلا زواج ،وهذا إذا تساوت نسبة العدد .. فما بالنا والنسبة لا تتساوى . . . ؟

كل ذلك يسبب تخلف نسبة كبيرة من الإناث عن الزواج ، والنتيجة الحتمية لذلك ما نراه واضحاً من انتشار البغاء العلنى والسرى فى الأمم التى تحدد الزوجات انتشاراً يفوق انتشاره فى غيرها أضعافاً مضاعفة ،كما تنتشر ولادة الأولاد غير الشرعيين ، وهم نتيجة الزنا ، فى كثير من البلاد إلى نسبة خطيرة تصل أحياناً إلى ما يقرب من ربع المواليد الشرعيين إن لم تزد .

كما تزيد الإصابة بالأمراض السرية فى مثل هذه البلاد زيادة كبيرة . .
أفلا يكون تعدد الزوجات فى بعض الحالات علاجاً ناجعاً لمثل هذه المشاكل ، ولاسيما أن هناك ظروفاً قاسية تمر بالإنسان يجد ألا مندوحة من الزواج بامرأة غير زوجته . . أفلا يكون أكرم للزوجة أن تقاسمها غيرها زوجها فى هدوء وبلا ضجة ، خصوصاً إذا ما كان بهذه الزوجة من العيوب ما لا يمكن للزوج احتماله ؟ ؟

وفى مقال عن مجلة هاربر بقلم سيليج جرينبرج ونشرته مجلة المختار فى عددها الصادر فى فبراير ١٩٥٨ : أن بالولايات المتحدة الآن نحو مليون امرأة أكثر من الرجال ، ويتنبأ مكتب التعداد بأن عدد نساء أمريكا فى سنة ١٩٧٥ سوف يربى على عدد الرجال بما يزيد على ٣,٦٠٠,٠٠٠ امرأة ، ويعزو علماء الحياة ذلك إلى ما تتميز به المرأة على الرجل بدنيا وإلى أن الأمراض كلها تقريباً تهلك من الرجال أكثر مما تهلك من النساء ، ولذا فإن فى الولايات المتحدة فى الوقت الحاضر ٧,٧٠٠,٠٠٠ أرملة ، ويتنبأ مكتب التعداد الأمريكى بأن هذه الفئة سيرتفع عددها فى أمريكا بمعدل مليونين كل ١٠ سنين . وإن الدكتورة ماريون لانجر العالمة الاجتماعية المتخصصة فى استشارات الزواج تقول إن لدى المجتمع حلين ممكنين فقط لتغطية النقص المتزايد فى الرجال . . إما تعدد الزوجات أو إيجاد طريقة ما لإطالة أعمار الرجال . .

فهل يمكن إيجاد طريقة لإطالة عمر الإنسان . . الرجل . . دون المرأة ؟ . . . أم ترى سيلجأ العالم إلى إباحة تعدد الزوجات . . . ؟

قد يكون بالزوجة عيب يمنعها من إنجاب الأولاد . . أفينقطع عقب الرجل لأنه لا يستطيع أن يتزوج من أخرى ، وتكون الطامة فى حياتهما

النكدة وفى بعد حياتهما من ضياع إرث أو مال أو مسئولية ؟ ؟ ؟ أهذا أفضل أم أن تعيش معها زوجة أخرى تنجب فتكون حياة مبسطة؟ ولعمري إن هذا لمنتهى الرحمة والشفقة بالزوجة والزوج . . والأمثلة على ذلك فى حياتنا كثيرة وعديدة .

وقد يكون بالزوجة عيب لا تستطيع معه القيام بخدمة زوجها على الوجه الأكمل فى أى شأن من شئونه ... أفلا يكون من الأرحم بالزوج أن يتزوج من تعنى بشئونه وشئون زوجته الأخرى . . إن ذلك ممكن وميسور . .

كل هذه الأمثلة قليلة لما قد يعترض حياة الزوجين فيكون شفيعاً لأن يتزوج الرجل بأخرى . . والإسلام إذا كان قد أباح هذا المبدأ فقد قيده بقيود ليجعل الأمر هيناً وييسر للرجل ويحفظ كرامة المرأة ، فأوجب على الرجل الذى يتزوج بأكثر من واحدة أن يعدل بينهن ، وهيهات أن يستطيع ، وقد قال القرآن ذلك صراحة إذ يقول المولى فى سورة النساء :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » .

وقد أكرم الله الزوجة والنساء فأنزل سورة كاملة لتبين حدود الله فى معاملتهن بعد أن قرر لهن جميع الحقوق المدنية والمالية والاجتماعية ، وأوصى بالزوجة إذ يقول فى سورة الروم : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ».

ونهى عن الإضرار بها على أية صورة . . فقد كان المتبع قبل الإسلام أنه إذا ما مات الرجل وترك امرأة جاء ابنه من غيرها أو أى من ذوى قرابته من عصبته فألقى على المرأة ثوبه فتصبح بذلك له . . إن شاء تزوجها بغير صداق أو يزوجها غيره على صداق يأخذه ، وإن شاء أضر بها وأساء إليها حتى تفتدى نفسها بما ورثته أو تموت فيرثها . . فأبطل الإسلام هذا الإضرار فيقول الله سبحانه وتعالى فى سورة النساء :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ » .

وفى سورة البقرة :

« وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ » .

كما أوصى بعشرة النساء بالمعروف : « وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ » .

وقد نهى الإسلام عن دفع المرأة إلى احتراف البغاء والإثم فيقول المولى عز وجل فى سورة النور :

« وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

وعن الإمام الغزالى أن آخر ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه ، جعل يقول : « الصلاة الصلاة . . وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون.. الله الله فى النساء فإنهن عوان فى أيديكم يعنى أسراء أخذتموهم بأمانة الله » .

وفى حديث لسيدنا رسول الله : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله » . وقال : « خيركم خيركم لنسائه . . وأنا خيركم لنسائه ».

هذا هو الإسلام . . . الذى حرر البشرية بنصفيها الرجال والنساء من كل عبودية وجور . . وحفظ عليها كرامتها ومنع الوساطة بين المخلوق وخالقه . .

ألا يسمى لذلك . . دين الكرامة والتحرر ؟ ؟ . . .

الإسلام دين أدب وخلق

قبل أن تصل التربية الحديثة إلى أن الأخلاق هى مقياس رفعة الشعوب والعامل الأساسى فى تقدمها . . وقبل أن تدعو أساليب التربية فى العصر الحالى إلى تربية أخلاق النشء . . . وتسير الدعوة إلى الخلق الحسن بجوار الدرس . . دعا الإسلام إلى ذلك منذ مئات السنين . . .

فنى أول لبنة من لبنات علاقة المجتمع يضع الإسلام أساس الأخلاق القويمة فى أسمى علاقة بين فرد وآخر . . ألا وهى علاقة الولد بأمه وأبيه يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الإسراء :

« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا » .

وفى سورة لقمان :

« وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ

إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » .

وقال سيدنا رسول الله : « بر الوالدين أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة والجهاد فى سبيل الله » .

ثم يجعل الإسلام المودة والرحمة هى أساس علاقة الزوج والزوجة فى سورة الروم :

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

أما فى علاقة الفرد مع المجتمع فيبدأ الإسلام بإيجاد الألفة بين أى فردين ، فهو يدعو إلى رد التحية بأحسن منها أو على الأقل ردها حيث يقول القرآن الكريم فى سورة النساء :

« وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً » .

كما ينهى الإسلام عن الكبر وعدم الاختيال بالنفس فى سورة لقمان يقول الله سبحانه :

« وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » .

ويطالب بالعفو عن الناس والإحسان لهم فى سورة الأعراف :

« خذِ ٱلعَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ »

وفى سورة البقرة : « وَأَحْسِنُواْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلمُحْسِنِينَ » .

ويطالب القرآن بعدم التجسس على الناس أو تتبع عوراتهم فينهى عن دخول المساكن إلا بعد الاستئذان والسلام على أصحابها حتى تكون الفرصة قد سنحت لستر العورة أو حجب ما لا يصح عرضه فيقول الله فى سورة النور : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » . . وفى سورة النور كذلك : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰتِ ٱلفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ الآيَـٰتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِذَا بَلَغَ ٱلأَطْفَالُ مِنكُمُ ٱلحُلُمَ فَلْيَسْتَئْذِنُوا كَمَا ٱسْتَأْذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

وينهى الإسلام عن الولوغ فى أعراض النساء والتحدث بما يؤذى

سمعتهن وفرض الله سبحانه عقاباً على من يقترف هذا الذنب إذ يقول فى سورة النور : « وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ » .

وفى سورة الهمزة : « وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ » .

كما ينهى الإسلام عن الظن والتجسس والغيبة فيقول فى سورة الحجرات : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ » .

بل يعمم النهى عن التجسس حتى باستراق السمع أو البصر فيقول الخبير العليم فى سورة الإسراء : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا » .

وقد عرف أن خلق الإسلام الذى دعا إليه وحبب إليه هو الاستقامة . . الاستقامة فى العمل والقول . لذلك فإن فاتحة الكتاب التى يقرأها المسلم فى صلواته الخمس التى فرضها الله عليه فى كل يوم ، والتى جمعت الحمد لله ، وذكرت صفات رب العالمين ، فهو الرحمن الرحيم ، وأقر فيها الإنسان بالعبودية لله وحده ، فإياه نعبد وإياه نستعين . . . فيها

الدعاء المفضل الذى اختاره الله لعباده ، ألا وهو الهداية إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم . . .

وفى سورة فصلت يقول الله : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . . وفى سورة الأحزاب :

« يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيداً ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً » .

بل ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة فيقول فى سورة إبراهيم : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَاءِ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَالَهَا مِن قَرَارٍ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ » .

ومما أوصى به القرآن فى أكثر من سورة . . الإحسان . . الإحسان المطلق فى العمل والقول وفى كل شأن من شئون الحياة . . وفى معظم الآيات الداعية إلى الإحسان نرى أن الله يأمر به . . . أمراً . .

فى سورة القصص يقول سبحانه : « وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ » .
وفى سورة البقرة : « وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ » .

كما وعد المحسنين مغفرة ورضواناً كبيراً فى الدنيا وفى الآخرة فيقول فى سورة يونس : « لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ » .

وفى سورة النحل : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ » .

وفى سورة الأعراف : « إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ »

وفى سورة النحل : « إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ » .
وفى المرسلات : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ » . وفى الأحزاب « إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » . . .

وكما دعا الإسلام إلى الإحسان فى العمل الذى سيجازى الله عليه

كما فى سورة الكهف : « إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » ، فقد دعا إلى الإحسان فى القول ، ففى سورة البقرة : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ » ، وفى سورة الإسراء : « وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » .

بل أمر الإسلام أن تكون المجادلة بالتى هى أحسن كما فى سورة العنكبوت : « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » ، وفى سورة النحل : « ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ »

بل لقد أمر الله بدفع السيئة بالحسنة ، فيقول جل شأنه فى سورة فصلت : « وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ » . وفى سورة المؤمنون : « ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ » .

كما خص سبحانه وتعالى المحسنين بحبه ، فقد ورد فى كثير من سور القرآن ما يفيد ذلك فيقول فى سورة المائدة : « فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ » .

ونبذ الإسلام الخيانة نبذاً تامـًّا فيقول الله سبحانه وتعالى :

« وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً »

(سورة النساء : ١٠٥)

« وَأَنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَائِنِينَ »

(سورة يوسف : ٥٢)

« إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ »

(سورة الحج : ٣٨)

« إنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً »

(سورة النساء : ١٠٧)

بل يقول الله لرسوله الأمين إذا استشعرت من قوم خيانة وأردت دفعها فأشعرهم بذلك حتى يكونوا على بينة من أمرهم فلا تأخذهم على غرة . . . ولقد جاء ذلك فى سورة الأنفال حيث يقول المولى الكريم :

« وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ عَلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَائِنِين » .

أليس هذا منتهى السمو فى الخلق . . . الذى يرفع الإنسان من مرتبة الآدمية إلى مصاف الملائكة ؟ . . .

وكما نبذ الإسلام الخيانة فقد دعا إلى الأمانة فيقول المولى فى سورة البقرة : « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُ » وأمر الله سبحانه بأداء الأمانة إلى أهلها فيقول

فى سورة النساء : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا »

وجعل القرآن الأمانة صنو الصلاة وبشر الذين يرعون الأمانات بالجنة شأنهم شأن المحافظين على صلواتهم فيقول فى سورة المؤمنون :

« وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

هذه بعض أوامر القرآن للمسلمين ليتجلقوا بالخلق الحسن وليكونوا قدوة للعالم إذا ما تمسكوا بما أمر به القرآن وتجنبوا ما نهى عنه . .

والأحاديث التى عن سيدنا رسول الله صلوات الله عليه وسلامه فى الدعوة إلى حسن الخلق كثيرة منها . .

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق » .

وجاء رجل يوماً إلى رسول الله فسأله : « ما الدين؟ قال : حسن الخلق ، فقال : وما حسن الخلق ؟ قال : هو أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك » .

ويتمثل خلق الإسلام وآدابه فيما طلبه الرسول الكريم من صحابته أن يبايعوه عليه . فقد روى عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصبة من أصحابه : « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً

ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف . فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو كفارته ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه »، فبايعناه على ذلك .

أليس من الإنصاف لهذا الدين أن نقول عنه إن الإسلام دين أدب وخلق . . . ؟ ؟

الإسلام دين طهر وعفة

كما أراد الإسلام أن يطهر عقيدة الإنسان من كل شرك أو زيف أو ضلالة — دعا إلى أن يطهر الإنسان ظاهره وباطنه . . فسورة المائدة تبدأ بأن الله عز وجل أحل لنا الأنعام إلا ما سيتلى منها : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ »، ثم بين الله سبحانه بعد ذلك فى السورة نفسها ما حرمه من الأكل فيقول :

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ».

ثم تتابع آيات السورة لتؤكد أن المسلم لا يجوز له أن يأكل إلا الطيب فيقول سبحانه وتعالى :

« يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ »، « ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ » ، فقد طهر الإسلام باطن المسلم بأكل الطيب ، كما طهر عقله بتوحيد عبادة الله. . ثم أراد الله أن يجعل المسلم طاهراً نظيفاً حتى فى ظاهره .. إذ نجد أن السورة نفسها قد دعت إلى نظافة المسلم نظافة عامة فيقول الله سبحانه :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ » .

وهكذا الدعوة إلى نظافة المسلم خمس مرات فى اليوم والاغتسال من الجنابة . . ويختم الله سبحانه وتعالى الآية بإيضاح الهدف من هذه النظافة فيقول : « وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

وحبب القرآن للمسلمين التطهر فى سورة البقرة : « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ » . وفى سورة التوبة « لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ

رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ » . . .
وفى سورة الواقعة : « إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ، فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ
لَّا يَمَسُّهُۥ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ »

بل أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بطهارة ثيابه فى أوائل الآيات التى نزلت من القرآن فيقول : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » . كما أمر سيدنا إبراهيم بطهارة الكعبة الشريفة فى سورة الحج : « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ » . وفى سورة البقرة : « وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ »

هكذ دعا الإسلام إلى تطهير المسلم ونظافته : عقيدة ، وجسداً ، وتطهير الجسد : ظاهراً ، وباطناً .

والآيات التى دعت المسلمين إلى الحلال وإلى الطيب فى كل شأن كثيرة . . الآيات صريحة فى دعوة المسلمين إلى الأكل الحلال واجتناب الحرام اجتناباً تامـًا ، تطهيراً لباطن الإنسان . . وما بداخله :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فى ٱلْأَرْضِ حَلالاً طيبًا »

(سورة البقرة : ١٦٨)

« وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا »

(سورة المائدة : ٨٨)

« فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّبًا » .

(سورة الأنفال : ٦٩)

« فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ » .

(سورة النحل : ١١٤)

« ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » .

(سورة الأعراف : ١٥٧)

« كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ » .

(سورة طه : ٨١)

« يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا » .

(سورة المؤمنون : ٥١)

وغير ذلك كثير من الآيات الصريحة التى طلبت من المسلمين التحرز فيما يكسبونه أو يأكلونه . . فلا يأكلون إلا حلالا . . وحلالا طيباً . . ولو قل الطيب فانه لا يستوى مع الخبيث عند الله كما يقول جل شأنه فى سورة المائدة : « قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ » .

بل إن الله سبحانه وتعالى يحرم الفواحش ظاهرها وباطنها ففى سورة الأعراف يقول :

« قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » .

وقد فصل الله فى كثير من الآيات ما حرمه سبحانه وتعالى على المسلمين فنهى عن أخذ مال اليتيم كما يقول فى سورة الأنعام :

« وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ » .

وفى سورة النساء :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا » .

« وَءَاتُوا ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ »

كما حرم سبحانه وتعالى الربا فى قوله فى سورة البقرة :

« ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ . وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ » .

ودعا الله سبحانه وتعالى إلى توخى الحق فى المشاركة فلا يأخذ مسلم ما ليس له بغير حق كما جاء فى سورة النساء :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ » .

وحرم الإسلام الرشوة فلا يعطى الحاكم ما يجعله يميل عن الحق ، كما جاء فى سورة البقرة :

« وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ

إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »

كذلك حرم السحت فيقول المولى فى سورة المائدة :

« وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ »

أما الأحاديث النبوية الشريفة فى هذا الباب فكثيرة منها :

« من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار » .

« كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » .

« لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس » .

الإسلام دين مساواة وعدالة وأخوة

ساوى الإسلام بين الناس عامة . . المرأة والرجل . . الصغير والكبير . . الغنى والفقير . . الوالى والعامل . . كلهم متساوون فى الإسلام مساواة تامة . . لا تعرف الجور ولا تقر الظلم . . لا تراعى الصهر ولا تسأل عن الحسب ولا النسب . .

تعاليم الإسلام تظل الجميع .. فى مساواة تامة كما يتساوون فى صفوف الصلاة ... بين يدى الله سبحانه وتعالى ...

كل مخلوق .. مهما كان ، وفى أى مكان أو زمان ، شأنه شأن غيره .. من ذكر وأنثى .. والله سبحانه هو الذى جعل الناس شعوباً وقبائل مختلفة ومتعددة .. والجميع متساوون أمام الله ، وأكرمهم عند الله أتقاهم ...

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ »

(سورة النساء : ١)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً »

(سورة الحجرات : ١٣)

وبهذا أقر الإسلام بأن الخلق أبناء أب واحد وأم واحدة فى أصلهم ، فمهما كان موطن مولدهم .. ومهما كان وضع طبقتهم فهم متساوون .. فلا تفاخر إذاً بالأنساب ولا تباهى بالألقاب . فيقول الله تعالى فى سورة الحجرات :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ

ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ » .

ولم تكن المساواة معروفة قبل الإسلام بل كان يسود المجتمعات البشرية نظام الطبقات والتفرقة الكبيرة بين الطبقة والأخرى ، بل بين أفراد الطبقة الواحدة . فكان إذا قتل لقبيلة عبد اجتمعت أفرادها لتقرر ما يساوى عبدهم من أفراد القبيلة القاتلة . . وهل يرضون عنه بديلا سيداً أو سيداً وعبداً أو أكثر أو أقل . . وكان القصاص فى القتلى والجرحى قصاصاً جائراً أساسه الجور والظلم وعدم الاعتراف بالمساواة بين الناس . . وقد حزم الإسلام الأمر فنهى عن هذه المساوئ ودعا إلى المساواة وإقامة العدالة فى القصاص للقتلى فيقول الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة : « يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيكُمْ ٱلقِصَاص فِى ٱلْقَتْلَىٰ ٱلْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ » ، وهذا منتهى العدالة والمساواة . . بل يتعمق الإسلام فى المساواة إلى درجتها القصوى ، فساوى فى القصاص العضو بمثيله فيقول الله فى سورة المائدة :

« وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِالْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِالسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ » .

وبهذه المساواة التامة بين أبناء الجنس البشرى حصن المسلمين ضد الانقسامات التى نشاهدها فى معظم بلاد العالم. ولعل ما يعترى العالم على فترات من الزمن من جور الأمم بعضها على بعض وبغى الأفراد بعضهم على بعض مبعثه كله يرجع إلى عدم المساواة ، فما زالت بعض الأمم تعتبر أن أفرادها من جنس مفضل على جنس أفراد غيرها ومن أصل يعلو على أصل الآخرين . . وما زالت التفرقة العنصرية واختلاف الأصل فى بعض البلاد سبباً فى اندلاع الثورات وعدم الاستقرار . وقد حاولت أمريكا حتى اليوم وإلى الغد إيجاد حل للتفرقة بين البيض والزنوج حقناً للدماء التى تسفح ومنعاً للثورات التى تنشب فلم تفلح . . . وإن هذه المشكلة لتعتبر أخطر وأقوى مشكلة مزمنة اعترضت أو تعترض أمريكا وغيرها من الدول التى تقاسى من مثل هذه التفرقة . . فما زالت الروح العنصرية فى أمريكا تمنع ذهاب الأطفال الزنوج إلى مدارس البيض فى ٢١ ولاية وفى مدينة واشنطن نفسها . كما أن فرصة التعليم كذلك تختلف للبيض عنها للملونين ، فإن نسبة الطلبة الذين يقضون خمس سنوات الابتدائى ٩٢,٥٪ من الطلبة البيض ولكنها للملونين ٥٨٪ ، وتتجاوز التفرقة كذلك إلى تكاليف التعليم فالملون تنفق الدولة عليه فى سبيل تعليمه ٥٧,٦ دولاراً فى السنة فى حين تنفق على الأبيض ١٠٤٦ دولاراً .

وقد أصدرت أمريكا التشريعات التى تدعو إلى إلغاء التفرقة ، وحاولت جاهدة إقامة مجتمعها على أساس الوحدة فلم تستطع . فبالرغم من أن المحاكم الأمريكية تحكم دائماً بإلغاء التفرقة العنصرية فى معاهد التعليم فى القضايا العنصرية التى تعرض عليها إلا أن المجتمع لا يستجيب إلى هذه

الأحكام . . بل يستخدم القوة فى منع تنفيذ هذه الأحكام ، كما حدث فى نوفمبر ١٩٥٧ فى ولاية أركيساس ، إذ حكمت المحكمة الأمريكية بإلغاء التفرقة العنصرية ودخول أولاد الزنوج مدارس البيض ، فتحدى حاكم الولاية هذا الحكم ودعا رجال الحرس الوطنى فى ولايته ليمنعوا بالقوة تنفيذ هذا الحكم وقد تم منع تنفيذ هذا الحكم .

ومما روته أنباء العالم فى أكتوبر ١٩٥٧ أن وزير مالية غانة طرد من أحد المطاعم فى مدينة دوفر بالولايات المتحدة لأنه غير مسموح للملونين بتناول الطعام فى هذا المطعم !

لقد عالج الإسلام مثل هذه الحالة وحصن بلاده ضد هذه الانقسامات ، بأن ساوى بين الناس جميعاً فى الحقوق والواجبات ، ودعا إلى المساواة التامة والإخاء الشامل بين أبناء البشر جميعاً ، فقد وجه الله سبحانه الخطاب فى قوله : « يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى » ، وفى قوله : « يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ » ، ويقرر أن الناس جميعاً أبناء أب واحد وأم واحدة مهما تباعدت دولهم واختلفت ألوانهم . وصدق رسول الله وعظمت حكمته وهو يقول : « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ويقول الكاتب جب فى كتابه « مع الإسلام » فى هذا الشأن : « ليس هناك أية هيئة سوى الإسلام يمكن أن تنجح مثله نجاحاً باهراً فى تأليف هذه الأجناس البشرية المتنافرة فى جبهة واحدة أساسها المساواة . وإذا

وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس فلا بد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع » .

وليس كالإسلام شريعة أو قانون حرص على إقامة العدالة إقامة مطلقة ، فيقول الله سبحانه فى سورة النحل : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

وإذا كان الإسلام قد أمر بالعدالة بين الناس فى الأحكام إذ يقول الله فى سورة النساء : « وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ » فقد أمر بالعدالة فى كل أمر حتى فى القول إذ يقول الله سبحانه فى سورة الأنعام : « وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ » ، أى ولو كان القول فى غير مصلحة ذى القربى . . .

ويصل الإسلام إلى ذروة الكمال التى لم تصل ولن تصل إليها شريعة أو قانون ، إذ يأمر بإقامة العدل ولو كان الحق فى جانب عدو . . فهل وصل عدل إلى مثل ما وصل إليه الإسلام فى الآية الشريفة فى سورة المائدة :

« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ »

بل يدعو الإسلام إلى العدل حتى ولو كان فى غير جانب الإنسان أو والديه أو أقاربه . . فالإسلام الذى دعا إلى البر بالوالدين وطاعتهما والإحسان لهما لا يرضى أن يجانب الإنسان العدل متى كان فى غير جانبهما

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ » .

(سورة النساء : ١٣٥)

وكما طالب الإسلام بإقامة العدل فى الحكم والقول ، دعا إليه فى العمل ونص على مراعاته فى الكيل والوزن :

« وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ » .

(سورة الإسراء : ٣٥)

« وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ » .

(سورة الرحمن : ٩)

« وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » .

(سورة الأنعام : ١٥٢)

« فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » .

(سورة الأعراف : ٨٥)

والآيات المشابهة التى تدعو إلى العدالة فى المعاملة كثيرة ، وقد نزلت سورة فى أولئك الذين لا يرعون هذه العدالة باسم سورة المطففين وفيها :

« وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » .

وقد هدف الإسلام إلى خلق مجتمع تسوده المحبة والتعاون ، فإن المساواة والعدالة هى الأسس التى يقوم عليها المجتمع التعاونى المتحاب . . فلا تعاون

ولا محبة ما لم تكن المساواة محققة والعدالة قائمة . . لذلك فإن الإسلام بعد أن دعا إلى إشاعة المساواة والعدالة نادى بالتعاون، ودعوة الإسلام للتعاون تعتبر أقدم دعوة تعاونية فى تاريخ العالم . ولقد لجأت كافة دول العالم إلى النظام التعاونى عندما وجدت أن الأزمات قد حلت بها . ولم تجد لها أية حلول . . ففى إنجلترا قامت حركة تعاونية بين طبقة النساجين فى روتشديل عام ١٨٤٤ عندما أصابتهم الفاقة وأضر بهم العوز والفقر . . وكانت جمعية رواد روتشديل التعاونية هى بداية انبثاق عهد الرخاء بالنسبة لهم . .

وعندما وقعت الدانيمارك فى أزمات متلاحقة متعاقبة نتيجة سقوط نابليون ، وقد كانت حليفته ، واجتاحتها سلسلة من النكبات ، من نقص سكانها . . وضياع ثروتها الزراعية . . وكساد تجارتها . .كان التعاون — الذى بدأت حركته عام ١٨٦٦— المنقذ لها من كل ما وصل إليه حالها من سوء ، وفى ذلك يقول جورج ديبون : « إن الفوضى الزراعية وفقدان التنظيم الاقتصادى أوشكا أن يوردا الدانيمارك موارد الخراب إلى أن حل النظام فيها محل الفوضى فأنقذها وأبدل عسرها باليسر والرخاء ، وذلك أن أعمال الإنتاج والاستهلاك قامت على الطريقة التعاونية فى معظم أنحاء البلاد » .

وأنقذت الحكومة الهندية فلاحيها بعد أن صارت الأرض الزراعية تنتقل ملكيتها إلى المرابين، بأن أنشأت أولى الجمعيات التعاونية للأراضى عام ١٩٠٤. وبدخول التعاون إلى الهند انحلت كافة الأزمات التى كانت تهدد الهند فى ذلك الوقت . .

وفى عصرنا الحديث نرى التعاون قد تغلغل حتى شمل كافة نواحى ومقومات الإنتاج والاستهلاك ، فمن جمعيات تعاونية منزلية إلى أخرى زراعية ، إلى بنوك تعاونية ، إلى جمعيات تعاونية لإنتاج سلعة معينة والاتجار بها حتى شملت معظم أنواع السلع الإنتاجية . . . وقد وجدت معظم الدول فى الجمعيات التعاونية الأمان كل الأمان من الهزات الاقتصادية والاستغلال التجارى .

كل هذا والإسلام ينادى بالتعاون من ١٤٠٠ سنة فى القرآن الكريم إذ يقول الله تعالى فى سورة المائدة محدداً التعاون على البر ، والبر يشمل كل النواحى الإنسانية من اقتصادية وخيرية وينهى عن المشاركة فى أى إثم أو عدوان : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ » .

وإذا كان التعاون هو خلق المجتمع المتآخى وعنوان الأمم المتراحمة فقد دعا الإسلام إلى التآخى فقرر فى أكثر من سورة أن المؤمنين كافة أخوة :

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ »

(سورة الحجرات : ١٠)

« وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم

مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »

(سورة آل عمران : ١٠٣)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ »

(سورة البقرة : ٢٢٠)

« فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى ٱلدِّينِ »

(سورة التوبة : ١١)

وإذا كانت الحركة التعاونية فى العالم تدعو إلى التيسير فى الإقراض والمشاركة فىالنفقات والرحمة فى المعاملات . . فإن الدعوة التعاونية فى الإسلام قد عمت أكثرمن ذلك ، فأمر بأن يكون الخير بلا تحديد فى نواحيه هوهدفالمجتمع التعاونى ، كما أمر بالبعد عن الإثم وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعد أن بين أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض فهم أخوة سواء :

« وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

« وَلْتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » .

وبذلك لا يملك أى منصف إلا أن يعترف بأن أسس الدعوة التعاونية فى الإسلام أعم فى خيرها وأعمق فى برها وأوسع فى دعوتها من أى دعوة تعاونية . . فهى دعوة تعاون فى الخير كل الخير فى كل وجه ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وبعد عن إثم . . وهى تهدف فى ذلك إلى تكوين مجتمع مترابط متواص بالحق متواص بالخير . . متواص بالرحمة ، له ولأفراده المجد والفلاح فى الدنيا . . والفوز والنجاة فى الآخرة .

ويدعو الرسول العزيز فى أحاديثه الشريفة إلى الأخوة والمحبة ، وما أكثر هذه الأحاديث التى منها :

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذله » .

« لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً » .

« إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم المشاءون بالنميمة المفرقون بين الإخوان » .

أما أساس المجتمع الذى دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وما يجب أن يكون عليه أفراده فقد أوضحه فى وصية لمعاذ بن جبل حيث يقول : « أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، ووفاء العهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجار . ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وخفض الجناح » .

وهكذا نرى أن طابع هذا الدين . . المساواة والعدالة والأخوة . . .

الإسلام دين قوة وسلام

ليس من الإسلام فى شىء الدعوة إلى ضعف أو تواكل . . وليس من المسلمين من ركن إلى الاستسلام أو آثر التخاذل . . فالإسلام دين دعا إلى القوة ولم يدع إلى التخاذل أو الضعف . . فيأمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم فى سورة الأنفال بأن يدعو المؤمنين فيقول: « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ » . ثم يأمرهم سبحانه وتعالى بحسن الاستعداد وإعداد كل ما يلزم للحرب فيقول فى نفس السورة : « وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ » .

ويبث الإسلام فى المسلمين الشجاعة والثبات فى الحرب فيقول :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

(سورة الأنفال : ٤٥)

« فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَا

أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا »

(سورة محمد : ٤)

ولعل القرآن الكريم أول كتاب نهى عن التقهقر فى الحرب والتراجع والانسحاب إلا إذا كان الانسحاب لاتخاذ مواقع أفضل ، أو لنجدة فرقة أخرى فيقول الله فى سورة الأنفال :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ » .

كما أوصى الإسلام بالنظام فى الحرب فيقول الله جل وعلا فى سورة الصف : « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ » .

كما نهى عن الخيانة حتى فى الحـــرب فيقول فى سورة الأنفال : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ » . فلا بد إذاً من إعلان الهجوم حتى يكونوا والعدو على سواء فى الاستعداد .

ويتسامى الإسلام فى أخلاق الحرب فيطالب بتأمين من طلب الأمان فيقول فى سورة التوبة : « وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ

فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ » .

والإسلام دين سلام . . لم يحبذ القوة ولم يدع للحرب . . بل إنه دعا للسلم ، فيقول فى سورة الأنفال : « وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ » .

والدعوة إلى القتال والحرب فى القرآن إنما كانت لرد الاعتداء، وليست للاعتداء فيقول الله فى سورة البقرة : « وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ » .

ويقول كذلك : « وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ »

ويقول المولى جل وعلا : « فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ » .

وفى سورة التوبة يقول سبحانه وتعالى : « وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ » .

وفى سورة البقرة: « وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ » .

ولم يحبذ الإسلام القسوة ولم يدع المسلمين إلى الاعتداء . . فقد تكررت الآيات التى تنهى عن الاعتداء مثل :

« وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ » .

(سورة البقرة : ٩٠)

« ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ » .

(سورة الأعراف : ٥٥)

« أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ » .

(سورة ق : ٢٤ ، ٢٥)

أليس فى هذا ما يدحض قول خصوم الإسلام ويظهر كذب قولهم بأن الإسلام قد انتشر بحد السيف ، وأن القوة التى صاحبت دعوته هى التى عملت على نشره فى العالم ؟ !

لقد نزل الوحى فى عام ٦١٠ على سيد الخلق وخاتم الرسل محمد ابن عبد الله وبدأ كفاحه فى سبيل الدعوة .. ويحدثنا التاريخ أنه صلى الله عليه وسلم لم يسير جيشاً ولم يعلن حرباً . . بل جمع الناس عند الصفا بمكة . . ووقف فى جمعهم لا ليشنها حرباً . . ولا ليعلنها جهاداً . . ولا أمراً . . إنما وقف يقول :

« يا معشر قريش ! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم . أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً

قط . قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . يا بنى عبد المطلب . . يا بنى عبد مناف . . يا بنى زهرة . . يا بنى تيم . . يا بنى مخزوم . . يا بنى أسد . . . إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله » . ولكنه ــ شأنه شأن كل مصلح وداعية إلى الخير وشأن كل نبى ورسول ــ كذبه قومه . . وهجوه . . وآذوه . . وحاربوه . . بل حاولوا أن يقتلوه . . بعد أن اعتدوا عليه مراراً . وبالرغم من ذلك لم يشنها حرباً . . ولم يحاول دفع الأذى بمثله بل أمر بأن يهاجر أتباعه إلى الحبشة بعيداً عن الأذى فهاجروا . . وظل رسول الله يدعو ويجاهد فى سبيل الله متحملا الإيذاء وصابراً على مساءات الكفار ثلاث عشرة سنة حتى بدأ يفكر فى رد العدوان . ويقول بودلى فى ذلك : «كان القرشيون أنفسهم سبباً من الأسباب التى دفعت محمداً إلى الالتجاء للقوة ، إذ استمر عداء أبى جهل لمحمد فى درجة الغليان . فقد كان يغير على جماعات المسلمين المتحركة باستمرار ويقاتل أية جماعة منعزلة يكمن لها ، وقد أغار على ضواحى المدينة وأتلف الزرع والحدائق . فأظهر لمحمد أن شعوره لم يتبدل وأن هدفه لا يزال قتله . فلم يكن هناك إلا حل واحد من وجهة نظر الجانبين وهو القتال » .

ويقول جيمس متشنر فى مقاله : « اخترت الدفاع عن الإسلام » :

« لم يحدث فى التاريخ أن انتشر دين بهذه السرعة . فعند وفاة محمد سنة ٦٣٢ ميلادية ، كان الإسلام يحتل جانباً كبيراً من شبه الجزيرة العربية ، ولم يلبث بعد ذلك أن ضم إليها سوريا وبلاد الفرس ومصر

والتخوم الجنوبية لروسيا وامتد إلى شمال أفريقيا حتى بلغ مداخل إسبانيا . وفى الزمن الذى جاء بعد ذلك كان تقدم الإسلام باهراً. واعتقد الغرب أن توسع الإسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعمد المسلمون إلى السيف ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الرأى . فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة . والدليل قوى على أن الإسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان ما دام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون الجزية . وقد حرص محمد على تلقين المسلمين التعاون مع أهل الكتاب ، أى اليهود والنصارى . ولا شك أن حروباً قد نشبت بين المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود فى بعض الأحيان ، وكان سبب ذلك أن أهل هذه الديانات الأخرى أصروا على القتال . وفى القرآن آيات تصور العنف الذى استخدم فى هذه الحروب ، ولكن الرهبان قطعوا بأن أهل الكتاب كانوا يعاملون معاملة طيبة ، وكانوا أحراراً فى عباداتهم » .

ومما يؤكد صحة هذا القول أن الإسلام أمر بأن تكون الدعوة له بالسلم وليست بالحرب ولم يشرع إلزام الناس بالإسلام بالقوة . فمن تعاليمه الواردة فى القرآن الكريم :

« لَآ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ » .

« مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » .

« وَلَا تُجَادِلُوٓا أَهْلَ الْكِتَٰبِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » .

ومما يشهد لحب الإسلام ونبيه فى السلام أن أمره اليومى الأول الذى أصدره عندما اضطر إلى الحرب كان : « لا تقتلوا امرأة .. ولا وليداً . . ولا شيخاً . . ولا تقطعوا شجرة .. ولا تحرقوا نخلا . . ولا تمثلوا بأحد . . ولا تكونوا ناهبين . . واجتنبوا الوجوه . . لا تضربوها » .

الله . . الله .. هذا هو الإسلام . . وهذا هو نبى الإسلام . . الذى كان آخر وصاياه : « ضعوا على قبرى جريدة خضراء » . . .

هذا هو الإسلام . . . دين القوة . . . والسلام .

العقائد والتكاليف الإسلاميّة
في ضوء العلم الحديث

الإيمان بالله

إن أول ركن من أركان الإسلام وأهم أصل من أصوله . . هو الإيمان بالله . . وقد نادت كافة الشرائع والأديان بالإيمان بالله ، فقد كانت دعوة كل نبي ورسول على توالى الزمن . . أن آمنوا بالله .

وقد قرب الإسلام صفات الله للناس بما أوضحه لهم فى القرآن الكريم من سمات هذه الأوصاف و بما ضربه لهم من الأمثال على هذه الصفات . .

فقطع القرآن الكريم بوحدانية الله . . وحدانية منزهة عن الشرك وعن المثل . . فليس لله سبحانه وتعالى شريك . . لم يلد ولم يولد وقد تنزه عن الأشباه فليس له كفواً أحد :

« قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . (سورة الإخلاص : ١ – ٤)

« وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » .
(سورة المائدة : ٧٣)

« فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ » .
(سورة محمد : ١٩)

« وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا » .
(سورة النساء : ٣٦)

« مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ » .

(سورة المؤمنون : ٩١)

« لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » .

(سورة الأنبياء : ٢٢)

وقرر الإسلام أن الله سبحانه وتعالى رب كل شيء فى الوجود . . فهو رب العالمين . . العلوى والسفلى والظاهر والباطن . . ليس فوقه شيء وهو باطن فى كل شيء . . وهو الأول فليس قبله شيء . . والآخر الذى ليس بعده شيء . . لا حول ولا قوة إلا به . . له الملك . . لا شريك له ولا إله إلا هو ، إليه النشور ، له الأمر كله .. والحياة والموت بأمره .. رب السماوات والأرض ورب ما بينهما . . ورب العرش العظيم :

« أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ » .

(سورة الأعراف : ٥٤)

« قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ » .

(سورة الرعد : ١٦)

« رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ » .

(سورة مريم : ٦٥)

« ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ » .

(سورة النمل : ٢٦)

« ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ » .

(سورة غافر : ٦٤)

وهو الخالق . . خلق كل شىء . . السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما وما تحتهما وما فوقهما . .

« قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ » .

(سورة الرعد : ١٦)

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ » .

(سورة الأنعام : ١)

« إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ » .

(سورة يونس : ٦)

إن الإيمان بالله الذى هذه سماته وصفاته . . والذى هذه قدرته وقوته . . يفعل فى المؤمن به ما لا يستطيع الطب بكافة أنواعه أن يقوم به . . .

فيقول الدكتور كارل يونج من أعظم أطباء النفس فى كتابه « الإنسان العصرى يبحث عن نفسه » : « وإن كل المرضى الذين استشارونى خلال الثلاثين سنة الماضية من كل أنحاء العالم كان سبب مرضهم هو نقص إيمانهم وتزعزع عقائدهم ولم ينالوا الشفاء إلا بعد أن استعادوا إيمانهم » . . .

ولقد قال أفلاطون «إن أكبر أخطاء الأطباء أنهم يحاولون علاج الجسد دون العقل فى حين أن العقل والجسد وجهان لشىء واحد فلا ينبغى أن يعالج أحد الوجهين على حدة » . وبعد ألفين وثلاثمائة عام ، وهى المدة التى استغرقها علم الطب ليتحقق من صدق هذا القول ، أنشىء « الطب النفسى الجسمانى » بعد أن أصبحت الخسائر التى تحدثها الأمراض النفسية فى الأرواح عشرة آلاف ضعف خسائر مرض الجدرى مثلا الذى تحاربه الدول وتعقد الاتفاقات الدولية فى سبيل حماية العالم من شره . وليست الأمراض النفسية أمراضاً وهمية ، إذ يقول الدكتور جوبر كبير أطباء اتحاد المستشفيات بأمريكا « ليست الأمراض النفسية أمراضاً وهمية بل هى حقيقية لها ألم يعدل ألم الأسنان التالفة وربما أشد مئات الأضعاف ، وأذكر مثلا لهذه الأمراض . . عسر الهضم العصبى وقرحة المعدة واضطرابات القلب والأرق والصداع وبعض أنواع الشلل » .

وتعانى الإنسانية فى كافة الدول من الأمراض النفسية ما جعلها تضع الطب النفسى الآن فى مقدمة فروع الطب ، وزودت المصانع والمؤسسات ومعاهد التعليم فى كل البلاد بالعيادات النفسية لخطورة ما تسببه هذه الأمراض .

وقد صرح الدكتور مايو وهو أحد أصحاب المستشفى المعروف بهذا الاسم فى أمريكا بأن أكثر من نصف عدد المخادع فى كافة المستشفيات يشغلها أشخاص يشكون من اضطرابات عصبية لا جسمانية . . واستقر الرأى أخيراً على أن قرحة المعدة سببها القلق .. فيقول الدكتور جوبر : « إن القلق يجعل العصارات الهاضمة تتحول إلى عصارات سامة تؤدى

فى كثير من الأحيان إلى قرحة المعدة » .

ويقول الدكتورجوزيف مونتاجى فى كتابه « اضطرابات المعدة العصبية » : « إن قرحة المعدة لا تأتى مما تأكله ولكنها تأتى مما يأكلك » .

ويقول الدكتور ألكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل فى الطب : « إن الذين لا يكافحون القلق يموتون مبكراً » .

ومن عجب أن يصل البحاث والأطباء إلى أنه لا علاج لهذه الأمراض إلا الإيمان بالله القادر الواحد الأحد . فيقول وليم جيمس أستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد : « إن أعظم علاج للقلق ولاشك هو الإيمان» . ويقرر الدكتور بريل : « إن المرء المتدين حقًّا لا يعانى قط مرضاً نفسيًّا » . . ويقول ديل كارنيجى « إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوى والاستمساك بالدين كفيلان بأن يقهرا القلق والتوتر العصبى وأن يشفيا هذه الأمراض» . .

وهل هناك إيمان أقوى من ذلك الذى دعا إليه الإسلام فى آيات القرآن الكريم .. ؟ ؟ أوليست دعوة الإسلام إلى الإيمان المطلق بالله إيماناً كاملا قويًّا . . وقاية للإنسان . . وعلاجاً له . . من كافة الأمراض النفسية وكثير من الأمراض العضوية . . ؟

ومن ضمن الصفات التى وصف الإسلام بها الله سبحانه وتعالى .. أنه الرزاق .. وغيره المرزوق .. وأنه صاحب الرزق .. ومقسمه إن شاء أعطى بغير حساب . . وإن أراد قدر الرزق كيف يشاء . .

« ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ » .

(سورة الشورى : ١٩)

« وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

(سورة البقرة : ٢١٢)

« إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ » .

(سورة الذاريات : ٥٨)

« ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ » .

(سورة الرعد : ٢٦)

فليس إذاً للإنسان من أمر رزقه شيء . . . اللهم إلا السعي للحصول عليه دون أن يكون له فيه شيء من زيادة أو نقص . . فما هدف الإسلام من ذلك . . ؟

تدل الإحصاءات على أنه فى كل خمس وثلاثين دقيقة يقع حادث انتحار ، وفى كل مائة وعشرين ثانية يصاب شخص بالجنون . . ولقد تفشى بين الناس ما سمى بمرض الانهيار العصبى . . وهو أخطر الأمراض النفسية والعضوية . . ومعظم حالات الانتحار والجنون والانهيار العصبى ، إن لم تكن كلها ، مرجعها إلى الرزق أو الاصطراع فى سبيله . . أو الكارثة بفقده أو الطمع فى زيادته . . وقد جاء فى إحصائية نشرتها مجلة « ليديز هوم جورنال » : « أن سبعين فى المائة من القلق الذى يعانيه الناس مرجعه إلى المال » . وليس من وقاية للإنسان من هذه الحوادث إلا الإيمان بالله الرزاق . . الذى قسم الأرزاق بين العباد دون أن يكون للمرء دخل فيها .

يقول ديل كارنيجى : « كان والداى يعملان جاهدين كالعبيد المسخرين ست عشرة ساعة فى اليوم ، وبرغم ذلك فقد كان يثقلنا الدين

ويركبنا سوء الطالع على الدوام ، ولقد دأبت الفيضانات المتعاقبة على إغراق محصولاتنا وتحالف ، مع الفيضانات المتوالية ، وباء الكوليرا الذى كان يفتك بماشيتنا عاماً بعد عام ، وبعد أعوام طويلة من المجهود المضنى والعمل الشاق ألفينا أنفسنا لا معدمين وحسب بل مرهقين بالدين الفادح ، وانتهى الأمر بأن رهنت مزرعتنا . ولقد طالما أذاقنا المصرف المرهونة لديه أرضنا صنوفاً من الهوان وفنوناً من الإذلال ، وطالما هددنا بانتزاع ملكية الأرض التى هى مورد رزقنا الوحيد . وقد وقع أبى فريسة القلق وانهارت صحته وتناقص وزنه ، وأنبأ الطبيب والدتى أن أبى قد فقد الرغبة فى مواصلة الحياة .. وكثيراً ما سمعت والدتى تقول إذا تأخر أبى عن موعد عودته فإنها تشفق أن تسعى إليه فتجد جثته متدلية من طرف حبل غليظ . . .

وفى ذات يوم جدد المصرف وعيده لأبى بانتزاع مزرعتنا ، فلما مر أبى فى طريق عودته إلى البيت بجسر فوق النهر أوقف عربته وترجل منها ووقف ذاهلا شارداً يتأمل مياه النهر المنسابة تحته ، وكأنما يهم بأن يلقى نفسه بين أحضانها . وقد حدثنى أبى بعد ذلك بأعوام فقال : إن الحائل الوحيد الذي منعه من إلقاء نفسه فى اليم هو اعتقاده الراسخ بوجود الله . . وأنه سبحانه لا بد متبع العسر بيسر . . وكان أبى على صواب . . فقد جاء الفرج بعد الكرب . وعاش أبى بعد ذلك فى رغد من العيش مدة اثنين وأربعين عاماً » .

هذا هو أحد أهداف الإيمان المطلق بالله الرزاق . ولو عرف كل إنسان أن رزقه هو كما شاء الله له . . أفيطغى شريك على آخر . . ؟

أيأخذ مؤمن غير حقه بهتاناً أو زوراً . . ؟ ؟ أيحقد إنسان على غيره لسعة رزقه ؟ ؟ أتظل الخلافات والحوادث التى سببها بغى الفرد وطمع الشريك فى رزق قدره الله ورتبه وقرره . . ؟ ؟

وهل اقتصر فضل الإيمان المطلق بالله على ذلك ؟ ؟

يعلمنا القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى عليم بكل شىء . . لا تخفى عليه خافية . . حتى الورقة التى تسقط . . والحبة فى الظلمات . . بل عليم بذات الصدور :

« إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » . (سورة فاطر : ٣٨)

« إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » . (سورة الحجرات : ١٨)

« يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » . (سورة التغابن : ٤)

« وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ » .

(سورة الأنعام : ٥٩)

هذا العلم – إذا ما امتلأ القلب إيماناً به وبأنه يرى ويسمع فى كل لحظة وآن . . وفى كل مكان وأوان – هل يعصيه المؤمن ؟ . . . إن اللص لا يحاول أن يسرق إلا فى غفلة من الشرطى الذى يمثل أمامه القوة والسلطة ، وأى مجرم لا يرتكب جرمه إلا خلسة فى جنح الظلام حتى يأمن الاختفاء من حماة القانون . . فهل يسرق المرء إذا آمن إيماناً كالذى يدعو إليه الإسلام ؟ أيسرق وهو يعلم أن الله معه وأنه يراه ؟ أيزنى وهو يعرف أن الله يرقبه ؟ أيقتل وهو مؤمن بأن الله سيتولى قصاصه وحسابه ؟ أيرتكب خيانة أو فحشاً . . مهما كان نوع الخيانة قولا أو فعلا ؟ ؟ . . إن الإنسان يردعه وجود الأكبر منه معه . . أيًّا كان : أخاً أو رئيساً أو قاضياً . . فكيف برب السماوات والأرض ؟ إن الإنسان ليخشى مع المخالفة سلطة القانون فيحاول دائماً أن يرتكبها فى غفلة منه . . فكيف ببطش ربك الشديد ؛ الذى يراك وتقلبك فى كل آونة وحين ؟ ؟

أولا يكون علاج المجتمع من جرائمه فى ضرورة تفهم المسلم ما أراده الله من الدعوة إلى الإيمان بالله فى الإسلام ؟ !

وقد وصف الإسلام الله سبحانه وتعالى بالرحمة فهو الرحمن الرحيم وأنه هو الذى تفرد بالرحمة وانفرد بالمغفرة :

« نَبِّئْ عِبَادِىَ أَنِّى أَنَا ٱلْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

(سورة الحجر : ٤٩)

« قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ » .

(سورة الزمر : ٥٣)

« وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا » .

(سورة النساء : ١١٠)

فإيمان الإنسان بأن الله يغفر الذنوب جميعاً . . وأنه إذا استغفره الإنسان غفر له . . من ضمن وسائل العلاج المستحدثة التي لم يصل إليها الطب إلا في العصر الحديث ، وإن كان لم يصل إلى ما وصل إليه طب الإسلام في هذه الآيات الشريفة .

فقد قرر علماء النفس – وعلى رأسهم فرويد مؤسس مدرسة التحليل النفسي – أن كافة الأمراض النفسية ترجع إلى الكبت الذي يسبب عقداً نفسية لا شفاء منها إلا بما يسمونه التحليل النفسي الذي يتم بأن يجلس الإنسان في عيادة الطبيب النفساني ويعترف أمامه بأخطائه . . وهذا الاعتراف يقول عنه الأطباء إنه صفة منطقية نفسية سلوكية تكشف عن أخطاء المريض فيراها ويشعر بها فتحدث مهادنة بين النفس والضمير . . . فيتسامح الضمير . . وإذا ما تسامح الضمير واستشعر الإنسان العفو منه والصفاء بينه وبين النفس . . زالت العقدة النفسية . . وعاد الإنسان إلى حالته الطبيعية . هذا والعقد النفسية ليست وهماً ؛ وليس

ما تسببه من أمراض وهماً ؛ كما أن الألم والظواهر التى تصاحب هذه الأمراض إنما هى أشد من الأمراض العضوية وتماثلها فى الأعراض ، وكثيراً ما تسبب هذه العقد الصداع والدوخة واضطرابات القلب وأمراض الضغط العالى وغيرها من الأمراض .. وإذا كان علاجها هو الاعتراف بالخطأ أمام الطبيب ليتسامح الضمير . . . فأى فرق بين الاعتراف أمام الله وأمام الطبيب . . ؟ وأى فرق بين غفران الله وتسامح الضمير ؟ هذا هو الفرق بين دعوة الإسلام إلى الإيمان بالله . . . وبين أية دعوة لغير الله . . .

ويدعو الإسلام الناس كافة إلى الإيمان بأن الله مع كل إنسان على الدوام ولذا فإن الإنسان ليس وحده فى الدنيا :

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

(سورة الحديد : ٤)

« إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ » .

(سورة النحل : ١٢٨)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا

هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » .

(سورة المجادلة : ٧)

« إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

(سورة التوبة : ٤٠)

« قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ » .

(سورة طه : ٤٦)

ولإيمان الإنسان بأنه ليس وحيداً وأن الله معه يعتبر وقاية من أخطر ما يصيب الإنسان بسبب وحدته وانعزاله . . فكثيراً ما ينعزل طفل عن المجموعة لسبب أو غيره مما يمت للشعور بالوحدة بالسبب . . . ويسبب هذا الانعزال ما يسمى بالنكوص وهو انطواء النفس على ذاتها وقطع صلتها بالغير . . ويعتبر أطباء علم النفس حالات النكوص أخطر المشاكل السلوكية التى تعترض الإنسان ، إذ تتخذ دائماً شكلا مرضياً

لاشك فيه، ولها أعراض مميزة، بل لها أمراض مخصصة هى نواتج لهذه الإحساسات .. منها المرض السوداوى الذى من أعراضه الكآبة والخوف والتشاؤم وعدم الرغبة فى الحياة والشعور بالرغبة فى الانتحار الذى كثيراً ما يلجأ إليه المريض ليتخلص من هذه الإحساسات . ومن أمراض النكوص كذلك ما يسمى بالفصام الذى يظهر فى سن المراهقة، وأعراضه تماثل أعراض المرض السوداوى، إلا أنها تزيد عليه بإحساس المريض بأنه يعيش فى عالم يفقد ماديته وواقعيته وحقيقته .. وإذا اشتد هذا المرض سبب ما يسمى الجنون الهذائى التأويلى . .

وأهم ما يشير به علماء النفس فى علاج مثل هذه الحالات هى دفع المريض إلى الاشتراك فى النشاط الاجتماعى، حتى يحس الإنسان بأنه مع غيره وبأنه عضو فى مجتمع مرتبط به، وحتى يقيم أواصر مودة مع غيره من أفراد المجتمع ليعوض ما كان يحسه من انطواء . كما أن أهم ما ينصح به أطباء النفس للوقاية والعلاج من مثل هذه الأمراض هى خلق صداقة مع المريض حتى ينعدم فيه الشعور بالانعزال . وهل هناك نسبة بين الصديق — مهما كان هذا الصديق — وبين الله سبحانه . . ؟ ؟

وإذا أحس الإنسان من يوم أن يدرك الحياة بأن الله معه . . يسمعه ويراه .. ويأخذ بيده ويرعاه، فهل يحس بالوحدة أو العزلة .. وهل يحتاج بعد ذلك إلى علاج، أو هل تنتابه مثل هذه الأمراض ؟ ؟

وما أصدق جون أنتونى المحامى بمدينة هدستون بولاية تكساس وهو يقول :

« ما أسهل أن يهزم الرجل الذى يقاتل بمفرده، أما الرجل الذى يتخذ

من الله سنداً ونصيراً فممتنع على الهزيمة » .

وممّا أورده القرآن الكريم من صفات الله — التى طالب الإسلام الناس بالإيمان بها — أنه سبحانه المقدر لكل أمر ، الفعال لكل ما يحدث فى الكون والخلق .. من قبل الخلق إلى ما بعد الانتهاء، وأنه سبحانه كما قدر دوران الأكوان فى مداراتها . . قدر حظ كل كائن . . من يوم أن يخطو إلى أن ينتهى به المسير . . وهذه الصفات لله تحتّم على الإنسان أن يؤمن بأن كل شىء كائن إنما هو مقدر من الله :

« هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ » .

(سورة آل عمران : ٦)

« وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ » .

(سورة القصص : ٦٨)

« قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ » .

(سورة التوبة : ٥١)

« إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » .

(سورة يس : ٨٢)

وكما أن الله سبحانه وتعالى قد رسم للأفلاك نظامها، فهى لا تحيد عنه إلا بما شاء .. كذلك رسم للإنسان — وهو أحد أحياء هذا الكون —

ما ليس له فيه دخل .. فرزقه .. وأجله .. وعقله مما لا دخل للإنسان فيه .. أما العمل الصالح وغير الصالح فهو نسيج الإنسان وحده .. فيقول الله فى سورة يونس :

« قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ » .

وفى سورة الإنسان :

« إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » .

ولقد كان الإيمان بالقضاء والقدر موضع دراسات كثيرة من يوم أن نادى به الإسلام .. وكان خصوم الإسلام يتخذون من هذا التسليم المطلق لله وسيلة لقولهم إن الإسلام دين تواكل واستسلام . وقد أوضح العلم الحديث بعد أن تقدمت أبحاث علوم النفس والاجتماع مدى ما هدف إليه الإسلام بالإيمان بالقضاء والقدر من خير المسلم والإسلام . .

إن الإيمان بالقضاء والقدر يخلق فى نفس المؤمن به رضاً يجعله يقبل كل ما يصيبه من مكروه ويسترجع ويستعيذ بالله القائل :

« ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ » .

فهل هناك عزاء للنفس ، وتصبير للمصاب أكثر من ذلك ؟

والإحساس بالرضا بما ليس منه بد هو ما ينصح به علماء النفس

وحكماء العصر الحديث ، فنصيحة وليم جيمس ، وهو أحد مشاهير الفلاسفة ، التى يضعها علماء النفس موضع الاعتبار نصها : « كن مستعداً لتقبل ما ليس منه بد ، فإن تقبل الأمر الواقع خطوة أولى نحو التغلب على ما يكتنف هذا الأمر الواقع من صعاب » .

أما شوبنهور الفيلسوف المعروف فإنه أودع نتائج دراسته لشئون الحياة فى حكمته القائلة : « إن التسليم بالأمر الواقع ذخيرة لا غناء عنها فى رحلاتنا عبر الحياة » .

وعندما قالت مرجريت فوللر ، إحدى زعيات النهضة النسائية فى نيوإنجلند ، فى اجتماع كبير بها : « إننى أرضى بكل صروف الدهر » علق توماس كارليل الكاتب المعروف قائلا : « إن هذا والله خير ما تفعله » . . . ويقول سينيكا أحد فلاسفة الرومان العظام : « إذا بدا لك كل ما لديك قليلا فاعلم أنك لو امتلكت الدنيا لاعتقدت أن ما لديك قليل » .

ويقول ديل كارنيجى : « لقد قرأت خلال الأعوام الثمانية الماضية كل كتاب وكل مجلة وكل مقالة عالجت موضوع القلق . فهل تريد أن تعرف أحكم نصيحة وأجداها خرجت بها من قراءاتى الطويلة ؟ إنها : "ارض بما ليس منه بد" » .

وإيمان الناس بأن الله قد كتب عليهم كل ما يصيبهم يجعلهم يتوخون فى معاملاتهم السماحة . . والصفاء . . والحب . . والسلام . طالما أن الرابح يعلم أن ربحه من الله .. وغير الرابح يؤمن بأن هذا ما أراده الله . . فلا حقد إذاً . . ولا حسد . . إنما صفاء ومحبة .

وكل خير يصيب الإنسان ويعلم بأن الله صاحبه وكل نعمة يذكرها المرء

على أنها من عند الله لما تأثيرها فى عقل الإنسان وجسمه.. فيقول الله فى هذا :
« وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لا تُحْصُوهَا »، « وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ » .
والإسلام يطلب أن نعد نعمة الله ويقرر أننا بشكرنا الله على هذه النعم لنا الجزاء فى الدنيا والآخرة . . أما فى الآخرة فسيتولاه الله بما يعلم . . وأما فى الدنيا فقد أوضح علم النفس أن حديث الإنسان إلى نفسه عما يستحق شكر الله عليه هو وسيلة النجاح فى الحياة والتخلص من كل العقد النفسية التى تصيب الإنسان . . فيقول ديل كارنيجى مؤسس معهد العلاقات الإنسانية بنيويورك : إن كالنتبورن بعد أن أصاب نجاحاً كبيراً فى أعماله طلب منه نصيحة يقدمها للشباب المتلهف على النجاح فقال : « فليتحدثوا كل يوم إلى أنفسهم كما كنت أفعل ، فنى هذا حفز على العمل وشحذ للهمم فإن حياتنا من نسيج أفكارنا وخواطرنا . وبحديثك إلى نفسك كل صباح تستطيع أن تزود نفسك بخواطر الشجاعة والسعادة والقوة والسلام ، وبحديثك إلى نفسك عن الأشياء التى تستحق أن تشكر الله عليها تملأ ذهنك بخواطر البهجة والانشراح . وإذا ملأت ذهنك بالأفكار الصحيحة وسعك أن تستمتع بأى عمل مهما يثقل عليك» .

ويقول جون ميلار مؤلف كتاب « ألق نظرة على نفسك» : إنه قد التزم فى حياته خطة ينصح بها الدكتور سير وليم أوسلر الذى يعتبر من كبار رجال الطب والذى يسمونه عبقريًّا فى معالجة الحياة ، وهى : « أن تعاقب الليل والنهار كفيل من تلقاء ذاته بمحو القلق ، فلذا لا أفكر فى مشكلة تطرأ لى وتستحثنى على القلق حتى ينقضى عليها أسبوع » . .

وبديهى أنه بعد هذه المدة إما أن تكون المشكلة حلت وإما أن يكون قد تغير التفكير فيها .

أما بودلى فيقول فى « عشت فى جنة الله » :

« إننى لم أعان شيئاً من القلق قط وأنا أعيش فى الصحراء، بل هناك فى جنة الله وجدت السكينة والقناعة والرضا ، وكثيرون من الناس يهزأون بالجبرية التى يؤمن بها الأعراب ، ويسخرون من امتثالهم للقضاء والقدر ، ولكن من يدرى ؟ فلعل الأعراب أصابوا كبد الحقيقة . فإنى إذ أعود بذاكرتى إلى الوراء، وأستعرض حياتى ، أرى جلياً أنها كانت تتشكل فى فترات متباعدة تبعاً لحوادث تطرأ عليها ، ولم تكن قط فى الحسبان أو مما أستطيع له دفعاً . . والعرب يطلقون على هذا اللون من الحوادث "مكتوب أو قسمة أو قضاء الله" وسمه أنت ما شئت . . وإننى بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتى الصحراء مازلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله . . فأقابل الحوادث التى لا حيلة لى فيها بالهدوء والامتثال والسكينة . ولقد أفلحت هذه الطباع التى اكتسبتها من العرب فى تهدئة أعصابى أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير » . . .

ويقول إدوارد إيفانز فى مذكراته بعد أن أصابته كوارث مالية كادت أن تودى بحياته : « لم أستطع أن آكل أو أنام ، وانتابنى المرض . . المرض الذى جره على القلق وشىء غير القلق . وبينما أنا أسير ذات يوم أدركنى الإعياء وتهاويت فى عرض الطريق وحملنى الناس إلى بيتى ، ولم ألبث حتى تفجر جسمى بثوراً مؤلمة حتى إن مجرد الرقاد فى الفراش أصبح محنة شديدة ، وكان هزالى يزداد يوماً بعد يوم . . وأخيراً أنهى إلى الطبيب أننى

لن أمكث حياً أكثر من أسبوعين . وصدقت ذلك وكتبت وصيتى ولبثت فى الفراش أنتظر النهاية المحتومة. . لم يعد يجدى إذ ذاك الخوف والقلق . . ومن ثم امتثلت للأقدار واسترخيت ورحت فى نوم عميق بدأت بعده المتاعب التى كنت أحسها تختفى وعادت شهوتى إلى . . . وبعد أسابيع قليلة استطعت المشى ، ثم استطعت أن أعود إلى العمل مرة أخرى . . »

وقد نجح إيفانز بعد ذلك نجاحاً منقطع النظير ، وأصبح رجلا من أنجح رجال الأعمال فى الولايات المتحدة ، وفى جرينلاند الآن مطار يحمل اسمه .

أليس ذلك بسبب امتثاله لقضاء الله . . ؟

هذا هو بعض ما هدف إليه الإسلام فى دعوته إلى الإيمان بالله ، أوضحها التقدم العلمى فى العصر الحديث .

وهذا هو الإيمان الذى دعا إليه الإسلام : إيمان بالله الذى لا حول ولا قوة لأحد إلا به . . ولا ملجأ منه إلا إليه . . ولا تدب نملة سوداء على حجر صلد فى الليل البهيم إلا وهو يراها .. ولا ينبض عرق فى جزء من كائن فى أى مكان إلا بأمره . . ولا يغفل عن شىء بآخر . . ولا يشغله شأن عن شأن . . . ولا تقوم الحياة إلا بأمره . . وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون . . هذا الإيمان بالله كما دعا إليه الإسلام ، يملأ شعاب القلب والفكر والنفس والحس ، ويملك على المرء حواسه ومشاعره . . يجعل من الله الحقيقة الكبرى ، وفى ذلك يقول جيمس متشنر : «كثيراً ما أحسست وأنا أعيش بين المسلمين أن الله عندهم حقيقة أكبر مما هى عند المسيحيين ».

وصدق الله العظيم الذى يقول :

« يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » .

(سورة الحديد : ١٢)

الصــــلاة

إن الصلاة أحد أركان الإسلام الخمسة .. فقد أمر الإسلام بإقامتها لوقتها وفرضها على المسلمين فرضاً :

« إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا »

(سورة النساء : ١٠٣)

« وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ »

(سورة هود : ١١٤)

« وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا »

(سورة طه : ١٣٢)

« قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ »

(سورة إبرهيم : ٣١)

« حَٰفِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ »

(سورة البقرة : ٢٣٨)

وبشر الله سبحانه وتعالى مقيميها حيث يقول :

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ » .

(سورة المؤمنون : ١، ٢)

« وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَـٰئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ » .

(سورة المعارج ٣٤، ٣٥)

كما أنذر الغافلين عنها ، فيقول عزّ القائل :

فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » .

(سورة الماعون : ٤، ٥)

« مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ » .

(سورة المدثر : ٤٢ ، ٤٣)

ومن أهم شروط الصلاة الوضوء . . إذ لا صلاة بلا وضوء . . فيأمر الله بغسل الوجه والذراعين والرجلين ومسح الرأس عند القيام للصلاة فيقول سبحانه فى سورة المائدة : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ » .

والوضوء من الناحية النفسية إنما هو إعداد الشخص وتهيئة ذهنه لأهم وأقدس ما يمكن أن يقوم به الإنسان فى حياته . . ألا وهو الوقوف بين يدى الله الرحمن الرحيم . . . فيبتعد عن شواغل الدنيا . . ويتجرد منها . . فهي إذاً استعداد نفسانى . . وقد شبه الدكتور محمد عبد الحميد

الوضوء بأنه كفترة الاستراحة بين محاضرتين . . فهى تعطى الطالب الوقت لترك التفكير فى المحاضرة الأولى وأخذ الأهبة للمحاضرة الثانية . .

أما فوائد الوضوء من الناحية الطبية فهى أكثر من أن تحصى . . إذ أنها وقاية وعلاج ، فيقول الدكتور موفق الشطى : « الوضوء غسل موضعى يوصى فيه باستعمال الماء البارد الذى يؤدى إلى تقبض العروق الشعرية السطحية ، ثم تعود إلى حالها ، فيستفيد الجسم من ذلك فائدة عظيمة . إذ يرتفع الضغط الدموى أولا ، وتزداد حركة القلب ، ويزداد عدد الكريات الحمراء ، وتنشط المبادلات فى الجسم ، وتقوى الحركات التنفسية ، فيزداد مقدار الأكسجين الداخل ، وتكثر كمية ثانى أكسيد الكربون الخارج . وغسل الأجزاء المكشوفة بالوضوء له تأثير عام على الجسم إذ يفرز البول ويكثر من إفراغ السموم وتزداد الشهوة إلى الطعام وينشط الهضم وتتنبه الأعصاب الجلدية والأعصاب المحركة ، وينتقل هذا التنبيه إلى جميع الأعصاب الوريدية والرئوية والمعدية ومنها إلى جميع الأعضاء والغدد » .

ولعل الطب الحديث قد أوضح ما للوضوء من آثار طبية فى الوقاية من أمراض الأسنان واللثة . . فنظافة الفم والمضمضة والغرغرة بالماء أهم ما يوصى به الأطباء لتجنب العدوى من الأمراض التى تنتشر عن طريق الجهاز التنفسى أو الفم . . كالالتهاب السحائى وأمراض الشعب . . بل إن غسل طاقات الأنف والفم بالماء البارد عدة مرات يوميًّا ليعتبر من أهم طرق الوقاية من الزكام .

أما غسل الوجه واليدين والرجلين فيقول المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل إن غسلها عدة مرات كل يوم أحسن وقاية لها من الأمراض

الجلدية والالتهابات إذ اتضح لى أن كثيراً من الميكروبات ، بل الأغلبية منها ، تصيب الإنسان بطريق اختراقها الجلد ، كما اتضح أن طفيليات الديدان تدخل الجسم بطريق اختراق الجلد أيضاً. ولاشك أن الغسل المتكرر من الوقايات البسيطة الفعالة ، لأن الطبقة الخارجية للجلد تمنع الميكروبات من الوصول إلى داخل الجسم إلا إذا حدث فى الجلد تسلخ . وإن من أهم أسباب حدوث التسلخات الحكة التى هى نتيجة عدم النظافة .

ويقول المرحوم الدكتور عبد الواحد الوكيل أستاذ علم الصحة والطب الوقائى بجامعة القاهرة سابقا فى كتابه « علم الصحة » :

« يؤدى الجلد للجسم وظيفة هامة جداً وهى إفراز العرق من آلاف غدد العرق الموجودة فيه ، ويحتوى العرق على مواد دهنية وأملاح ، فإذا تبخر الماء بقيت الأملاح الدهنية وتراكمت على الجلد . . فإذا كان الجلد قذراً من تراكم هذه الأملاح والمواد الدهنية عليه انسدت مسام الغدد العرقية ، وينتج عن ذلك أن عملية العرق لا تؤدى كما يجب . ووجود القذارة على الجلد قد يؤدى إلى حدوث عدوى الأمراض المعدية ، وإن نظافة الجلد والأظافر هى من أهم لوازم الصحة الشخصية ، فيجب غسل الوجه واليدين عدة مرات ، فى اليوم وبالأخص قبل النوم وبعده ، وغسل اليدين قبل الطعام وبعده وبعد استعمال المرحاض وإذا صافح الإنسان مريضاً بمرض معد أو جلدى أو إذا صافح شخصاً قذراً . كما يجب على الإنسان أن يعنى بغسل مخارج الإفرازات . أما نظافة الفم فن أهم الضروريات لأن أهمال ذلك يؤدى إلى ازدياد الميكروبات بالفم وإلى تسوس الأسنان وإلى تقيح اللثة من بقايا الطعام ويصير صديد الأسنان واللثة مصدر خطر كبير على

الجسم ، لذلك يجب غسل الأسنان على الأقل مرتين فى اليوم » .

هذه هى بعض حِكم الوضوء التى أثبتها العلم الحديث لمصلحة الإنسان . . أما الصلاة فإن فوائدها لم تعد مقصورة على النواحى الاجتماعية ، كما كان معروفاً ، بل أثبت التقدم فى علوم الطب والنفس أن حِكم الصلاة قد شملت الإنسان بجزئيه : الجسد والنفس .

فإن أهم ما تعنى به أساليب التربية الحديثة ، وما ينصح به علم الصحة الوقائية ، التمرينات الرياضية التى أصبحت تمارس وتؤدى فى أوقات مخصصة شأنها شأن باقى المواد والدروس . . لما اتضح من أن التمرينات الرياضية هى الأساس فى بناء الجسم السليم الذى لابد منه لوجود العقل السليم . . . وإن فى أداء الصلاة خمس مرات كل يوم خير وسيلة لجنى فوائد التمرينات الرياضية . . فأوقاتها هى أنسب الأوقات التى يوصى فيها بأداء التمارين . . فقبل شروق الشمس حيث الجو النقى وحيث الجسم ما زال فى كسل النوم . . وفى الظهيرة حيث قد حل بالجسم تعب العمل . . وفى العصر حيث قارب يوم العمل أن ينتهى وأسرع إلى الجسم الكد والتعب . . وفى الغروب حيث ينتهى العمل ويبدأ الإنسان يستعد لراحة الليل . . وفى العشاء حيث يختم الإنسان يومه . . هذه هى أنسب الأوقات التى لابد للإنسان فيها من أداء التمارين الرياضية ، لتعويض جسمه بما فقده ، وإزالة ما به من كسل وخمول ، وتجديد الدورة الدموية وتنشيط التنفس . .

أما حركاتها فقد عرف أن القيام والقعود عدة مرات فى كل صلاة خير وسيلة لتنشيط الدورة الدموية التى تنشط كافة الأجهزة ، ولذا تعتبر

الصلاة منشطة للهضم وفاتحة للشهوة . . ونرى أوقاتها تتناسب وهذه الحكمة تناسباً تاماً . . فى الصباح قبل الإفطار . . وفى الظهيرة قبل الغداء . . وفى العصر حيث الهضم قد بدأ . . وفى الغروب حيث الإنسان بين وجبتى الغداء والعشاء . . وفى العشاء حيث يكون الهضم قد بدأ . ولا يعلم قدر فوائد الصلاة فى الهضم أحد مثل من صلى التراويح فى شهر رمضان حيث تزيد حركات القيام والقعود فى عدد كبير من الركعات . . .

والركوع والقيام منه يقوى عضلات الظهر والمعدة . . ويزيل ما قد يتكون على جدار المعدة من دهون وشحوم . . أما السجود فإنه يقوى عضلات الفخذين والساقين ، ويساعد على وصول الدم إلى أطرف الجسم ، كما أنه يقوى جدار المعدة وينبه حركات الأمعاء . والسجود أيضاً وقاية من مرض تمدد المعدة بما يسببه من تقلص عضلاتها وتحريك الحجاب الحاجز . . . وتعتبر الصلاة أفضل رياضة بدنية يستفيد منها الجسم، إذ أنها تحرك الأطراف وتصل حركتها إلى كافة العضلات والمفاصل والعظام . . .

ولا تقتصر فوائد الصلاة العضوية على ذلك . . فقد أثبت الطب الحديث أن الصلاة تعمل على خفض الدم العالى، وأن مرضى الضغط العالى لو حافظوا على أداء الصلاة وأقاموها على مهل وتؤدة لأفادت فائدة محققة . . كما أن أداء الصلاة قبل الأكل يعتبر عاملا هاماً فى وقاية الإنسان من أمراض المعدة لاسيا قرحة المعدة، إذ ينصح الأطباء دائماً كل إنسان بألا يتناول طعامه وهو مجهد أو مرهق أو ثائر الأعصاب،

بل لابد من فترة هدوء وراحة تسبق الطعام . . وإن الصلاة لخير ما ينفع الإنسان فى ذلك .

وتشمل الصلاة بفوائدها الجهاز العصبى للإنسان . . فعلاوة على أنه لوحظ انخفاض ضغط الدم فى أثنائها مما يكون له تأثير مباشر على القلب والعمل على الحد من زيادة ضرباته . . فإن للصلاة تأثيراً مباشراً على الجهاز العصبى إذ أنها تزيل توتره . . وتهدئ من ثورته . . وتشفيه من اضطرابه . بل تعتبر علاجاً ناجعاً للأرق الناتج عن الاضطراب العصبى . فيقول الدكتور توماس هايسلوب : « إن من أهم مقومات النوم التى عرفتها فى خلال سنين طويلة من الخبرة والتجريب هو الصلاة ، وأنا ألقى هذا القول بوصفى طبيباً ، فإن الصلاة هى أهم وسيلة عرفت إلى الآن لبث الطمأنينة فى النفوس وبث الهدوء فى الأعصاب » .

ويقول الدكتور إدوين فردريك باورز أستاذ الأمراض العصبية بالولايات المتحدة بأمريكا : « أمكن إبراء كثير من الأمراض المعدية فى وقت قصير مدهش بالنسبة لقصره . ولكن بقطع النظر عن جميع معجزات العلاج التى تمت فى دنيانا هذه ما زالت هناك معجزات أخرى فى إبراء المريض والأعرج والكسيح والأعمى لا يمكن تعليلها ولا ينفع فيها العلاج الطبى أو الجراحى أو السيكولوجى أو الاهتزازى . فهناك ألوف الحالات التى لم يجد فيها أشهر الأطباء وأشدهم فطنة أدنى بارقة أمل والتى تم فيها مع ذلك شفاء المرضى واستعادتهم الصحة والعقل خلال معجزة من معجزات الصلاة » .

أما الدكتور ألكسيس كارليل الحائز على جائزة نوبل فى الطب

ورئيس قسم البحوث فى مؤسسة روكفلر بأمريكا فيقول عن الصلاة:
« إنها تحدث بعض النشاط فى أجهزة الجسم وأعضائه، بل هى أعظم مولد للنشاط عرف إلى يومنا هذا ، وقد رأيت بوصفى طبيباً كثيراً من المرضى أخفقت العقاقير فى علاجهم، فلما رفع الطب يديه عجزاً وتسليماً تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم . إن الصلاة كمعدن (الراديوم) مصدر للإشعاع ومولد ذاتى للنشاط . ويجب أن نفهم أن الصلاة ليست مجرد تلاوة ميكانيكية للأدعية ولكنها تسامٍ صوفى يحس فيها الإنسان بالله سبحانه كما يحس بحرارة الشمس أو كما يحس بعطف صديق. والإنسان فيها يقدم نفسه لله ويقف بين يديه كأنه لوحة من القماش أمام النقاش أو قطعة من الرخام أمام المثال . إن الصلاة تخلق ظاهرة غريبة إنها تأتى بمعجزة، فقد شاهدنا تأثير الصلاة فى الحالات الباثولوجية إذ برئ كثير من المرضى من أمراض مختلفة متعددة كالتدرن البريتونى والأخرجة الباردة والتهاب العظام والجروح القائحة والسرطان وغيره . . » .

أما فائدة الصلاة للإنسان من الناحية النفسية فإنها أكثر من أن تحصى وأعم من أن تذكر . . فى الصلاة يتذكر الإنسان ربه وأن بيده سبحانه وتعالى الأمر كله . . وأن الإنسان فى هذه الحياة لا يكافح وحده . . وأن للعالم خالقاً بصيراً حاكماً عادلا . . فإذا ما ظلمه ظالم . . أو جار على حقه جائر . . فوض أمره إلى من تقوم السماوات والأرض بأمره . . وإذا حزبه أمر . . أو ضاقت به الحياة فى زحمتها . . لجأ إلى الله الذى وسعت رحمته كل شىء . . فمن يملك الأمر سواه . . ومن يقدر على كل شىء غيره ؟ ؟

إن هذا الإحساس لمما يحيط الإنسان فى حياته بجو من الهدوء والاطمئنان النفسى الذى يعينه على الاستمرار فى حياته بصحة جسمية وراحة عقلية واطمئنان حسى . .

ولا يقتصر فضل الصلاة فى الناحية النفسية على ذلك بل إن الوقوف بين يدى الله خمس مرات فى اليوم وطلب المغفرة منه فى كل خطأ ارتكبه الإنسان لمما يجعل المرء فى حصانة من العقد النفسية التى تسبب إخفاق الإنسان فى حياته . . . وتبعد عنه الكبت وما يسببه من أمراض .

وتقول الدكتورة « روز هلفردنج » المستشارة الطبية لمستشفى بوسطن : « إن من الأدوية الشافية للقلق إفضاء الشاكى بمتاعبه إلى شخص يثق به . وحين يتحدث المرضى عن متاعبهم بإسهاب وتفصيل ينتفى القلق من أذهانهم فإن مجرد اجترار الشكوى فيه شفاء . أما اختزانها فى الذهن واستئثار المرء بها فإنه كفيل بخلق التوتر العصبى » .

وقد أنشئت أغرب مؤسسة فى العالم تحت اسم « رابطة إنقاذ الحياة » تهدف إلى إنقاذ حياة الذين أزمعوا التخلص من حياتهم بالانتحار . وقد أصبحت ملجأ لكل من يشعر بالتعاسة والفشل . وتعتمد هذه المؤسسة فى علاجها على إفضاء المريض بأخطائه وما يقاسيه . . ثم لا تملك المؤسسة بعد ذلك إلا النصح والإرشاد . . وعلى ذلك اعتبر الإفضاء من الوسائل العلاجية المعمول بها الآن فى كل المستشفيات النفسية والعصبية بل العضوية والجراحية ومن وسائل الوقاية . . وينصح أطباء النفس باختيار الشخص الذى نفضى إليه فليس كل شخص يمكن الإفضاء إليه . . ولا يشترط أن يكون الشخص المفضى إليه طبيباً أو من رجال

القانون أو الدين . . إنما المهم الإحساس بأن هذا الشخص يسمع . . ويحس . . ويعين . . فكيف إذا لجأ الإنسان إلى الله الذى يسمع ويرى ويملك الأمر بيده الخير كل الخير . . أفليس الإنسان إذا ما أقام الصلاة يكون بمنجاة من كل هذه الأمراض ؟ ؟ . .

والصلاة فى الإسلام دعاء . . وتسبيح . . وتكبير . . وذكر دائم لله . . وأوقاتها هى بداية اليوم . . قبل أن يبدأ الإنسان عمله . . وفى الظهيرة والعصر حيث العمل على أشده . . وفى الغروب والليل حيث التفكير فى كل ما مر فى اليوم . . . وإذا ما ذكر الإنسان الله فى هذه الأوقات وملأ قلبه الإيمان . . فلن تثبت فى صدره الرغبة فى حقد . . ولن تتولد فى قلبه ذرة من حسد أو يحزن لرزق ارتقب فلم يكن . . . إن الصلاة هى أن يسلم المرء أمره إلى الله كما يسلم وجهه إليه خمس مرات فى اليوم . . . فهل يأسف الإنسان المصلى على شىء فاته ؟ أو يقلق على شىء يرتقبه . . ؟ وهو يقف بين يدى الله الذى شاء وأراد . . فكان . .

ومما يدعو إليه أطباء علم النفس العصريون استعمال ما يسمونه « القوة العاطفية » بعد أن ثبت أن الخيال يؤثر فى حياة الإنسان أكثر مما يؤثر فيها العزم القوى أو الإرادة القوية . . وتتلخص هذه القوة العاطفية فى أن يردد الإنسان كل صباح : « إنى أتحسن وأتحسن ، وأسير من حسن إلى أحسن ، من جميع الوجوه يوماً بعد يوم » ، وكان أول من دعا إلى ذلك الصيدلى الفرنسى كوى الذى نال شهرة واسعة من جراء هذا الرأى . . ثم اتخذ أطباء النفس تلك القوة العاطفية وسيلة لبداية يوم طيب يكون

وقاية للإنسان من كل اهتزاز نفسى أو كبت أو عقد بسبب مشاكل الحياة . . فهل من سبيل للمقارنة بين ترديد هذا القول وبين الصلاة التى يحمد الله فيها الإنسان سبع عشرة مرة فى اليوم والتى يبدأ بها الإنسان يومه ويذكر فيها الإنسان رحمة الله وفضله ويدعوه إلى أن يهديه إلى الصراط المستقيم . . ؟ ؟ ألا ما أبعد الفرق بين ما ينصح به علماء النفس وما هدف إليه الإسلام فى الصلاة . . .

هذه بعض فوائد الصلاة من ناحيتها العضوية والنفسية . . وفضل الصلاة فى الإسلام لا يشمل المصلى وحده الذى يحس بما للصلاة من أثر فى كافة نواحيه بل تتعداه إلى المجتمع . . فلقد حرص الإسلام على الدعوة إلى الصلاة الجامعة حتى إنه أوجبها مرة فى الأسبوع على الأقل . . ودعا إليها فى كل الفروض الخمسة . . متوخياً فى ذلك الألفة بين المسلمين ، وتوثيق أواصر المحبة بين المصلين ، والنظر فى أمر الناس عامة ، حتى إنه إذا ما نزلت بالمسلمين نازلة تنادوا إلى الصلاة الجامعة ، فاجتمعوا لعبادة الله ثم التشاور فيما هم فيه . . هذا فضلا عما فى اجتماع المسلمين فى الصلاة الجامعة من أثر كبير فى خلق مجتمع منظم متساو فى أفراده تساويه فى صفوف صلاته . . وليس كالصلاة الجامعة وسيلة لخلق الصفات الحميدة فى الإسلام . . فهذا الجمع الحاشد فى المسجد مختلف فى لباسه . . متباين فى ثرائه . . متفارق فى أعماره . . كلهم فى صف واحد . . يتقدمهم إمامهم للصلاة ، وقد يكون أقلهم جاهاً وأرخصهم رداءاً وأفقرهم حالا . وكم كانت هذه الصورة للصلاة الجامعة جميلة عند كل من يراها من غير المسلمين لأول مرة ، وكم كانت سبباً لدراسة

الإسلام ، وإسلام كثير من مختلف الديانات والشعوب . .

ولقد خلقت الصلاة المساواة فى المجتمع الإسلامى، فيقول الكاتب هراس ليف فى المجلة الإسلامية الإنجليزية: « ما كان شيء فى العالم ليقنعنى بأن أى دين من الأديان يدعو إلى المساواة بين الناس، ولو أن بعضها يتظاهر بهذه الدعوة . فقد زرت كثيراً من الكنائس والمعابد فرأيت التفريق بين الطبقات داخل المعابد كما هو خارجها . وكان اعتقادى بالطبع أن الأمر لابد كذلك داخل المساجد الإسلامية . ولكن ما كان أشد دهشتى حينما رأيت الشعور بالمساواة على أتمه بين المسلمين فى عيد الفطر فى مسجد ووكنج بلندن . هنالك وجدت أجناساً مختلطين على اختلافهم فى المراتب اختلاطاً لك أن تسميه بحق أخوياً ، ولم أكن شاهدت مثل ذلك . ترى فى المسجد نوبياً من بلاد ممباسا يصافح عظيماً من رجال الأعمال المصريين أو سياسياً من بلاد العرب . وقد ارتفعت الكلفة بين الجميع فلا يأنف أحدهم مهما عظم قدره من أن يجاوره فى الصلاة أقل الناس شأناً . وإنك لا تجد أقل محاولة لتخطى الصفوف إلى مكان ممتاز بالمسجد لأنه ليس هنالك أى مكان ممتاز . فالكل عند الله سواء لا فضل لأحد على سواه . وعندما صرح لى إمام المسجد بأن المسملين يعتقدون رسالة جميع الأنبياء ويؤمنون بما أنزل إليهم كدت لا أصدق أذنى . وكان هذا جديداً استفدته عن الإسلام لذلك لم أعد أشك فى أن هذا الدين يصلح لأن يكون ديناً عاماً » .

ومما جاء فى كتاب العقيدة الإسلامية للسير توماس أرنولد عن الصلاة : « هذا الفرض المنظم من عبادة الله هو من أعظم الأمارات المميزة

للمسلمين عن غيرهم فى حياتهم الدينية ، فكثيراً ما لاحظ السائحون وغيرهم فى بلاد المسلمين ما لكيفية أدائه من التأثير فى النفوس» . وقال الأسقف لوفروا : «لا يستطيع أحد يكون قدخالط المسلمين أن لا يدهش لأول مرة ويتأثر بمظهر عقيدتهم ، فإنك حيثما كنت : فى شارع مطروق أم فى محطة سكة حديد أم فى حقل أكثر ما تألف عيناك مشاهدته أن ترى رجلا ليس عليه أدنى مسحة للرياء ولا أقل شائبة من حب الظهور يذر عمله الذى يشغله وينطلق فى سكون وتواضع لأداء صلاته فى وقتها المعين . أما صلاة الجماعة فإنه لا يتأتى لأحد يكون قد رأى مرة فى حياته ما يقرب من خمسة عشر ألف مصل فى مسجد يوم الجمعة كلهم مستغرقون فى صلاتهم وقد بدت عليهم أكبر شعائر التعظيم والخشية فى كل حركة من حركاتهم — لا يتأتى لأحد يكون رأى ذلك المشهد أن لا يبلغ تأثره به أعماق قلبه وأن لا يلحظ ببصره القوة التى تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها» .

ويقول الأستاذ عبد الله كوليم الإنجليزى المسلم : إنه حينما كان مسافراً على ظهر باخرة إلى طنجة فى بلاد المغرب إذ بعاصفة قد هبت وأشرفت السفينة على الغرق وأخذ الركاب يحزمون أمتعتهم ويهرولون فى كل اتجاه وقد اضطربوا ونزل بهم الهول فلا يدرون ماذا يصنعون . . وإذ به يرى جماعة من المسلمين قد استوت فى صف واحد يكبرون ويهللون ويسبحون . . فسأل أحدهم : ماذا يفعلون ؟ فقال : نصلى لله . . فسأل ألم يلهكم إشراف السفينة على الغرق ؟ قال : لا . . إننا نصلى لله الذى بيده وحده الأمر إن شاء أحيا . . وإن شاء أمات . . وقد كان هذا الحادث سبباً فى

بحثه عن الدين الإسلامى وهدايته للإسلام وأصبح من كبار دعاة الإسلام فى إنجلترا وقد أسلم على يديه الكثير . .

ويقول الكونت هنرى دى كاسترى فى « كتاب الإسلام » : « خرجت إلى الصحراء لأرفه عن نفسى راكباً فرساً صحبة ثلاثين عربياً ممتطين جيادهم وبعد برهة توقفوا عن المسير . . فقد حانت صلاة العصر . . فنزلوا عن خيولهم ووقفوا صفاً واحداً . . وببرانسهم البيضاء ينحنون ويسجدون بحركات منتظمة يكبرون الله . . فاستولى علىّ شعور لا يوصف هو مزيج من الخجل والغضب . . فإن هؤلاء الأعراب البسطاء كانوا على يقين من أنهم أشرف منى نفساً وأكبر همة . . وما كان أبدع منظرهم وجيادهم تقف على مقربة منهم وأعنتها ملقاة على الأرض وقد ضربت السكينة عليها بجناحيها وكأنها تولاها الخشوع من رهبة الصلاة وخشية الله . . لقد خيل إلىّ وأنا بين أهل البادية أنى أرى بعينى لأول مرة فى حياتى رجالا يعبدون الله . . »

هذه هى الصلاة الإسلامية التى دعا إليها الإسلام : نظافة ظاهرية بغسل المسلم أعضاءه خمس مرات . . ونظافة باطنية بتسليم أمره تسليماً كاملا لله فى كل وقت من أوقات اليوم . . . فهى تكبير لله وتسبيح وذكر لرحمات الله وفضله ودعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم . . والصلاة الإسلامية رياضة جسدية بما يقوم به المصلى من حركات تشمل كافة أجزاء جسمه . . فتبعث فيه النشاط والحركة وتمنع عنه الخمول والكسل . . وهى رياضة روحية بالاعتماد المطلق على الله . . ما أصبح الصباح وما انتصف النهار وما مالت الشمس ، وإذا ما غربت وإذا ما شمل الليل

العالم بهدوئه وسكونه . . .

وهى دعوة للدنيا والدين . . فهى اجتماع الفرد بالمجتمع لمصلحة دنياه . . واجتماع بالله لمصلحة آخرته ودنياه . . .

وصدق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل :

« مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار على باب أحدكم كثير الماء يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فهل يبقى عليه من الدرن شيء ؟ ؟ » .

الزكاة

الزكاة إحدى دعائم الإسلام الخمس . . . أوجبها الإسلام على المسلمين وفرض أداءها فرضاً . . .

« وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ » .

(سورة المزمل : ٢٠)

« وَمَآ أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ »

(سورة البينة : ٥)

وبشر الله سبحانه وتعالى الذين يؤدون الزكاة فقال سبحانه فى سورة المؤمنون : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ » :

كما أنذر الذين يمتنعون عن إخراجها فيقول جل القائل فى سورة التوبة : « وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ » .

والكنز هو كل مال لا تؤدى زكاته وإن لم يكن مدفوناً .. أما ما تؤدى زكاته من المال فليس بكنز ولو كان مدفوناً .

والزكاة واجبة على كل مسلم ، ولو لم يبلغ الحلم ، ولو كان سفيهاً ؛ فيجب على الوصى أن يخرج زكاة مال من هو وصى عليه . . وتؤدى على الزرع والثمار ، والذهب والفضة ، وأموال التجارة ، وعلى كل ما زاد على نصاب المسلم . .

وليس فى العالم على اختلاف أنظمته أى تشريع يبز الزكاة أو حتى يماثله فى العدالة التى قررها ، فإن تفاوت النسب المقررة فيه تفاوتاً يتمشى مع الجهد المبذول فى كسب المال ، لمما يحقق العدالة المطلقة . . ويضمن السماحة فى الأداء . . فبينما يوجب الإسلام فى الزكاة دفع الخمس فيما يصادفه الإنسان من ربح مجموع محصل من الأموال.. فإنه يوجب نصف الخمس فيما كان فى تحصيله نصف مشقة كالزرع الذى يباشر صاحبه الحرث والبذر . . أما السقى فمن عند الله بلا كلفة فى رى . . وربع الخمس إذا كان فى السقى بكلفة من آلات أو شراء ماء . . وثمن الخمس

فيما لابد من المشقة فى سبيله . . كدوام الإدارة والعمل والتربص . .

كما تتميز الزكاة عن غيرها من ضروب الدفع على الإطلاق بموعد أدائها . . فأوجب الإسلام الزكاة مرة كل عام، وجعل موعد زكاة الزرع والثمار تمام نموه . . وكمال نضجه . . وهذا أفضل الأداء . . . فإن وجوب الزكاة كل يوم . . أو كل أسبوع . . أو كل شهر . . يضر برأس المال ولا يدفعها الدافع عن سماح وتراض . . كما أن وجوبها مرة واحدة فى العمر يضر بمن أوجب لهم الزكاة من المساكين . . فليس أعدل من تلك المواعيد التى قررها الإسلام . .

وليست الزكاة نوعاً من الصدقة أو الإحسان يدفعه المسلم . . إنما هو حق معلوم، وفى أدائه على هذا النحو صون لكرامة الفقير . . وحفظ لماء وجهه . . فلا يحس الفقير بأنه موضع الصدقة والإحسان . . إنما يشعر أن الزكاة ضريبة الأخوة . . وحق المسلم الفقير على المسلم القادر . فهى لذلك ليست وسيلة لمحاربة الفقر قدر ما هى وسيلة لمحاربة جرائم الفقر . . إذ أن الفقر أساس جرائم الفرد وثورات الجماعات . وأداء الغنى للزكاة يكسبه حب الفقير وتقديره ويعمل على الحرص عليه وعلى ماله . . فلذلك كانت أكبر عامل على منع انتشار المبادئ التى تثير الحقد على الأغنياء . . .

ولقد حاول العالم جاهداً أن يوفر لشعوبه وحكوماته الأمان والرفاهية . . برفع المستوى الاقتصادى ، فما تهدف الحروب والانقلابات التى حدثت وتحدث فى الدول على اختلافها إلا إلى توفير الحياة للفقير ورفع المستوى الاقتصادى . . وما النظم المختلفة التى نراها فى العالم الآن من رأسمالية

وشيوعية وفاشية ونازية واشتراكية . . إلا محاولات تحاولها الدول لوضع أنظمة اقتصادية تكفل نشر السلام بين ربوعها . . .

فمنذ القرن السادس كانت الدول تتسابق إلى كنز الأموال وزيادة صادراتها عن وارداتها . . لتكديس الذهب بها . . فكانت الدولة فى معاملاتها مع غيرها كالتاجر. وقد ساد هذا المذهب الذى كان يسمى بمذهب التجاريين حتى قامت الدعوة إلى الحرية الاقتصادية وتنافس الأفراد فى العمل . . وزاد ذلك من ثروة الأغنياء ، وزادت، حاجة الفقراء . . ثم تدخلت الآلات والمصانع فضاعفت من الإنتاج، وبالتالى ضاعفت ثروة الأغنياء ودفعت الفقراء إلى حضيض الفاقة . . .

وقام كارل ماركس ليعلن أن سبب شقاء العمال وفقر الفقراء هو مطامع أصحاب رؤوس الأموال وجشعهم فى الحصول على الثروة واستغلالهم الضعفاء فى سبيل ذلك . . وأنه لا سبيل إلى إصلاح حالهم إلا بالقضاء على سبب الشقاء، وهو رأس المال الفردى أى الملكية الفردية من صناعية وزراعية وتجارية.. وبأن تكون المساواة بين الناس جميعاً قانوناً، وأن يكون العمل إجبارياً على كل فرد قادر، ويدير الملكية العامة حكومة من العمال والزراع ، وبذلك ينصلح حال الطبقة الفقيرة . . . واستمدت البلشفية الشيوعية جميع مبادئها الأصلية من هذا النداء ، إذ لم يكن لينين زعيم البلشفيك إلا تلميذاً لكارل ماركس . وظهرت الشيوعية التى تحرم الملكية الخاصة فى جميع صورها ، فهى لا تفرق بين ثروات الإنتاج وثروات الاستهلاك، وقاعدتها فى التوزيع : لكل على حسب حاجته ومن كل على حسب قدرته : .

وإن أوضح صفات هذه النظم وأبرز ما تتميز به المغالاة والتطرف ... فالرأسمالية تستحوذ على العامل والفقير باعتبارهم أداة لزيادة الدخل . . كما أنها تقدس رأس المال وتحافظ عليه لأفراده وتشجع نموه . . والشيوعية تستحوذ على رأس المال حتى تمنع طغيانه ، فحرمت لذلك الملكية الفردية ، فلا اعتدال فى الحكم ، ولا وسط فى الرأى . . ومن ثم يظهر واضحاً البون الشاسع بين الرأيين مما حدا بكل نظام إلى إبراز ما للنظام الآخر من مساوئ وعيوب . .

والمنصف لا يستطيع أن يغفل الحقيقة الكبرى . . حقيقة أن نظام الإسلام فيه الأمان كل الأمان من أية مغالاة . . فهو لا يعادى رأس المال لذاته . . إنما يمنع طغيانه . . ولا يعادى الملكية الفردية . . إنما يمنع تجاوز أصحابها حدودهم . . فلم يطالب الإسلام بإلغاء الملكيات ولكن خفف من الفوارق بين الناس دون الالتجاء إلى مصادرة أملاكهم . . ونادى باستحالة المساواة المطلقة بين الناس إذ لا يتفق ذلك والنواميس الطبيعية . . فيقول القرآن : « وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ » ، و « هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ » .

فترك الإسلام للفرد رأس ماله وترك له الحرية فى التصرف فيه . . ونادى بحق الفقير على الغنى . ومحاربة الإسلام لطغيان رأس المال جاء فى صور شتى ، فقد منع نمو رأس المال بالربا . . وهو أسرع وأخطر طريقة لنمو المال دون جهد أو عمل . . اللهم إلا استغلال

حاجة محتاج أو ضائقة معوز أو فقير أو مريض . . فيقول الله سبحانه : « وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا » والبيع الحلال هو كل ما فيه معاوضة صحيحة خالية من أكل أموال الناس بالباطل الذى لا يقابله عوض . وحرمت الزيادة التى يأخذها صاحب المال من أجل التأخير فى الأداء وهى لا معاوضة فيها ولا مقابل لها . . فمنع بذلك استغلال أصحاب رؤوس الأموال لعسر المعوزين والمضطرين .

ومن ضمن صور محاربة الإسلام لطغيان رأس المال الدعوة إلى إنفاق المال فى سبيل المصلحة العامة وتداوله وعدم كنزه بحبسه عن التعامل وأنذر كانزى الأموال بالعذاب الأليم فيقول الله : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

والصدقات كذلك من ضمن الصور التى أراد بها الإسلام منع طغيان رأس المال، فقد دعا الإسلام إلى الصدقة وحبب إليها وجعلها تطهيراً للمتصدق وتزكية له . . كما جعلها فدية لكثير من الأمور . .

« وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » .

(سورة البقرة : ٢٨٠)

« يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِى الصَّدَقَٰتِ » .

(سورة البقرة : ٢٧٦)

« إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ » .

(سورة البقرة : ٢٧١)

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » .

(سورة التوبة : ١٠٣)

« إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً » .

(سورة المجادلة : ١٢)

« فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ »

(سورة البقرة : ١٩٦)

وأهم صور هذه المحاربة الزكاة التى تعتبر حقاً لا مفر من أدائه على كل مسلم ومسلمة فيما عدا الفقراء والمساكين وعمال الجباية والمؤلفة قلوبهم من الطارئين على المجتمع الإسلامى وأبناء السبيل والغارمين والمجاهدين فى سبيل الله فهؤلاء معفون منها مؤقتاً حتى تتبدل صفاتهم التى أعفوا فى سبيلها . .

ومن ضمن ما قام به الإسلام فى سبيل إشاعة العدالة التى اعتمدت عليها النهضات الاقتصادية نشر العلم . . ليعرف كل حدوده . . ويقف كل فرد على واجباته . . إذ يعتبر العلم إحدى الدعامات الكبرى للإصلاح لأنه ينير الطريق ويفرق بين الحق والباطل . . ويميز بين الخبيث والطيب . . والإسلام أول نظام دعا إلى العلم . . ولم يسجل التاريخ لمصلح دعوته إلى العلم كما سجل لنبى الإسلام . . وشهد بذلك

كثيرون من غير المسلمين . . فيقول العلامة كازنوفا أحد كبار علماء فرنسا والأستاذ بجامعة « كوليج دى فرانس » بباريس : « يعتقد الكثيرون أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنا وهضم أفكارنا . يعتقدون ذلك وينسون أن نبي الإسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة . فأى رئيس دينى كبير وأى قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول الفصل المتين . هذا القول نفسه هو عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة » .

ويقول الدكتور هورتن وهو من علماء الألمان : « نجد بالإسلام اتحاد الدين والعلم وهو الدين الوحيد الذى يوحد بين هذين . ونجد أن الدين موضوع بدائرة العلم وان وجهة الفيلسوف ووجهة الفقيه متماشيتان معاً كتفاً لكتف دون نزاع » .

والزكاة تعتبر من ضمن مفاخر التكاليف الإسلامية وقد أوضح التقدم الفكرى فى العصر الحديث أهمية الزكاة .. فيقول العلامة جيب : « ما زال الإسلام يحفظ التوازن بين الاتجاهين المتغاليين فى دنيا العالم ، فهو يساوى ويوائم بين الاشتراكية القومية الأوربية وشيوعية روسيا . فلم يهو بالجانب الاقتصادى من الحياة إلى ذلك النطاق الضيق الذى أصبح من مميزات أوربا فى الوقت الحالى والذى هو اليوم من مميزات روسيا أيضاً » .

ويقول ما سينسيون : « إن لدى الإسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فكرة المساواة وذلك بفرض زكاة يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض عمليات المبادلات التى لا ضابط لها ، وحبس الثروات .

كما يناهض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجات الأولية الضرورية ويقف فى نفس الوقت إلى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجارى . وبذا يحل الإسلام مرة أخرى مكاناً وسطاً بين نظريات الرأسمالية البرجوازية ونظريات البلشفية الشيوعية ».

وفضل الزكاة لا يقتصر على المسلمين كجماعة فى ضمان تأمين مجتمعهم ، وتعاون أفرادهم ، وعدم جور فريق على آخر فى وطنهم . . وإنما يتناول المسلم الفرد المؤدى للزكاة . . فهو فضلا على أنه يكتسب محبة مجتمعه ، ويشعر بأنه قوة فعالة فى حفظ أمان هذا المجتمع ، فإن النفس التى تشعر بأنها تؤدى للغير نفعاً . كثيراً ما تصفو . . وقليلا ما تضطرب .. فيقول العالم النفسى دريزر : « إذا شاء الرجل أن يستخلص من الحياة المتعة فعليه أن يساهم فى اجتلاب المنفعة للآخرين فإن متعة الشخص تعتمد على متعة الآخرين ومتعة الآخرين تعتمد على متعته » .

كما يقول علم النفس إن أساس الصحة العقلية فى اشتراك الإنسان فى النشاط الاجتماعى وشعوره بأنه يؤدى للمجتمع نفعاً وبأنه عضو عامل فى هذا المجتمع وأنه يسعى دائماً لخدمته . . وليس كالزكاة وسيلة يشعر الإنسان فيها بأنه من ماله الذى اجتهد فى سبيل جمعه يبنى الأسس الصالحة لمجتمعه السليم النظيف المترابط . .

ومن ضمن ما أثبته علم النفس أن الزكاة ، وهى دفع قيمة معينة من رأس المال ومن الربح ومن كل ما زاد عن حاجة الإنسان، تجعل الإنسان يتحلل من عبادة المال ولا يجعل حب المال يسيطر عليه السيطرة التى تؤدى بالإنسان دائماً إلى المرض وإلى الانتحار أحياناً . .

يقول ديل كارنيجي : « جمع جون روكفلر أول مليون من ثروته فى سن الثالثة والثلاثين ، وفى سن الثالثة والأربعين كان قد أنشأ أضخم شركة احتكار فى العالم ، وفى سن الثالثة والخمسين كان قد أسلم زمامه للقلق الذى حطم صحته حتى لقد كان يبدو كالدمية . إذ أصيب بسوء الهضم وتساقط شعر رأسه وتقصفت أهدابه وبلغت حالته الصحية حداً من الخطورة حتى إن الأطباء نصحوا له بأن يعيش على اللبن ولا شىء سواه . لقد استحال روكفلر إلى هيكل عظمى مكسو بالجلد الأصفر الباهت ، ولم ينقذه من الموت فى تلك السن إلا الرعاية الطبية التى بذل فى سبيلها الأموال الطائلة . . فما الذى أوصل روكفلر إلى تلك الحال ؟ . . كان يعبد المال ولم يكن شىء يلهب حماسته ويبث فيه القوة ويدخل فى قلبه السعادة أكثر من سماعه بنجاح صفقة عقدها . أما إذا سمع بنبأ خسارة حاقت به فإنه يمرض فى التو واللحظة . لقد حدث ذات مرة أن شحن غلالا قيمتها أربعون ألف دولار دون أن يؤمن عليها بمبلغ ١٥٠ دولاراً ، وفى الليلة التى أبحرت فيها السفينة تحمل الغلال هبت عاصفة فتولى روكفلر القلق وأرسل شريكه ليرى هل يمكن التأمين ودفع المبلغ . فلما عاد شريكه يحمل إليه النبأ المطمئن بالتأمين وجده أسوأ حالا مما تركه. ذلك أنه تسلم برقية تنبئه بأن الحملة وصلت سالمة . . فحز فى نفسه أنه بدد ١٥٠ دولاراً قيمة التأمين . . . لقد مرض روكفلر فى ذلك اليوم ولزم فراشه وكان يربح فى ذلك الوقت نصف مليون دولار فى السنة . . .

خيره الأطباء بين اعتزال العمل أو الموت فاختار الاعتزال وأوصوه بإتباع قواعد معينة . . ولكنه فعل شيئاً آخر . . أخذ يفكر فى غيره من

الناس وبدأ يتخلى عن ملايينه ودأب على الإعطاء .. وهب الكنيسة جانباً من ماله ..أسدى المعونة للزنوج .. ساهم فى محاربة داء الإنكلستوما.. أمد كل الجهات بالمال .. وحين تخلى روكفلر عن المال عاوده السلام والأمان والاطمئنان » .

ولقد عاش روكفلر حتى بلغ الثامنة والتسعين وكان المتوقع له أن يموت فى سن الثالثة والخمسين .. وهكذا فعل فيه التجرد من حب المال ..

إن فضل الزكاة يشمل الكل : المؤدِّى لها من كافة نواحيه ، والمؤدَّى إليه كذلك من كل نواحيه ، كما يشمل المجتمع الذى يضم كليهما ..

وهكذا ليس لمفاخر الزكاة – كما لمفاخر الإسلام – من نهاية ...

الصـــــيام

أثبت التقدم العلمى فى العصر الحديث ما للصيام الذى فرضه الله على المسلمين من فوائد شاملة لكافة النواحى الروحية والجسدية ... علاجية ووقائية ...

والصيام أحد أركان الإسلام فيقول الله تعالى فى سورة البقرة :

« يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عليكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ على ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

وحدد سبحانه وتعالى الصوم بشهر فى السنة هو شهر رمضان فيقول جل القائل فى سورة البقرة .

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

ولقد كان المعروف المتواتر عن حكمة الصيام أنها دعوة روحية ليحس الغنى بإحساس الفقير إذا جاع ، فيشمله ببره . . وكان خصوم الإسلام كثيراً ما يتساءلون لماذا يصوم الفقير ؟ . . ولماذا يصوم الغنى الذى يتصدق ويخرج للفقير حقه المقرر فى الزكاة ؟ . .

ولم تظهر فوائد الصيام إلا بعد أن اتسعت آفاق العلوم وتقدمت العلوم الطبية . . فإذا بالصيام،وصيام شهر فى السنة . . هو ما ينصح به الطب الحديث .

تقول أحدث نظريات علم الصحة : إنه من الواجب– لا سيما على المتقدمين فى السن أن يصوموا يوماً على الأقل فى كل أسبوع . . أو أسبوعاً فى كل شهر . . والأفضل شهراً فى كل عام . . إذ قد ثبت أن الإنسان غالباً ما يصاب ببعض البؤرات الصديدية التى تتكون داخل جسمه وتصب إفرازاتها السامة فى الدم . . ولا يشعر الإنسان بها إلا إذا زاد

ذلك الإفراز . . فإذا بالإنسان يمرض فجأة بأمراض قد يكون التسمم أقلها . . . وقد عرف أن الصوم خير وسيلة لتجنب الإصابة بهذه البؤرات . . إذ عندما تقل المواد الغذائية فى الجسم يبدأ الجسم فى استهلاك أنسجته الداخلية . . وأول ما يستهلكه منها الخلايا المصابة التى تكون قد ضعفت نتيجة الالتهاب . . كما يذيب الصيام أية أورام صغيرة فى أول تكونها . . ويمنع تكوين الحصوات والرواسب الجيرية . . إذ يحللها أولا بأول .

وفى ذلك يقول الدكتور روبرت بارتولو : « لاشك فى أن الصوم من الوسائل الفعالة فى التخلص من الميكروبات وبينها ميكروب الزهرى لما يتضمن من إتلاف للخلايا ثم إعادة بنائها من جديد » .

ويقول المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل : « إن الصيام يستعمل طبيًّا فى حالات كثيرة ووقائيًّا فى حالات أكثر . وإن كثيراً من الأوامر الدينية لم تظهر حكمتها وستظهر مع تقدم العلوم . فلقد ظهر أن الصيام يفيد طبيًّا فى حالات كثيرة ، وهو العلاج الوحيد فى أحوال أخرى . فللعلاج يستعمل فى اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر ويستعمل فى زيادة الوزن الناشئة من كثرة الغذاء . وكذلك فى زيادة الضغط . أما فى البول السكرى فلما كان قبل ظهوره يكون مصحوباً غالباً بزيادة فى الوزن فالصوم يكون بذلك علاجاً نافعاً . ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات فى الغذاء أهم علاج لهذا المرض . والصوم يعتبر علاجاً لالتهاب الكلى الحاد والمزمن وأمراض القلب . والصيام مدة شهر فى السنة يعتبر خير وقاية من كل هذه الأمراض » .

ويقول الدكتور محمد الظواهرى : « إن كرم رمضان يشمل مرضى الأمراض الجلدية ، إذ تتحسن بعض الأمراض الجلدية بالصوم، وعلاقة التغذية بالأمراض الجلدية متينة . . إذا أن الامتناع عن الغذاء والشراب مدة ما تقلل من الماء فى الجسم والدم ، وهذا بدوره يدعو إلى قلته فى الجلد، وحينئذ تزداد مقاومة الجلد للأمراض الجلدية المعدية والميكروبية . ومقاومة الجسم فى علاج الأمراض المعدية هى العامل الأول الذى يعتمد عليه فى سرعة الشفاء . وإن الجسم الذى لا يقاوم الميكروبات ويدفعها ينهار . . ويضعف تأثير الدواء المبيد للميكروبات مع الجسم القليل المقاومة . وقلة الماء من الجلد تقلل أيضاً من حدة الأمراض الجلدية الالتهابية والحادة والمنتشرة بمساحات كبيرة فى الجسم . وأفضل علاج لهذه الحالات من وجهة الغذاء هى الامتناع عن الطعام والشراب لفترة ما ، ولا يسمح إلا بالقليل من السوائل البسيطة . وقلة الطعام تؤدى إلى نقص الكمية التى تصل منه إلى الأمعاء ، وهذا بدوره يريحها ويقلل من تكاثر الميكروبات الكامنة بها وما أكثرها ، وعندئذ يقل نشاط تلك الميكروبات المعوية ، ويقل إفرازها للسموم ، وبالتالى يقل امتصاص تلك السموم من الأمعاء ، وهذه السموم تسبب العدد الكثير من الأمراض الجلدية ، وإن الأمعاء لبؤرة خطرة من البؤر العفنة التى تشع سمومها عند كثير من الناس ، وتؤذى الجسم والجلد وتسبب لهما أمراضاً لا حصر لها . وشهر الصيام هو شهر الهدنة للراحة من تلك السموم وأضرارها . والصيام كذلك علاج لأمراض زيادة الحساسية ، وأمراض البشرة الدهنية » .

ولعل أشهر مصحة فى العالم الآن هى مصحة الدكتور هنريج لاهمان

فى درسدن فى سكسونيا يقوم العلاج فيها بالصوم . . وقد أنشئت مصحات أخرى على غرارها عندما كثر ضغط المرضى على هذا النوع من العلاج . . كمصحات الدكتور برشربنر والدكتور مولر . . وغيرها . . وأساس العلاج فى هذه المصحات هو التخلص من الفضلات الزائدة عن حاجة الجسم التى ترهق الأعضاء على اختلافها ، وإتاحة الفرصة للأعضاء الهاضمة المرهقة من الأطعمة بأن تستريح قليلا . . ويكون ذلك غالباً فيه الشفاء من اضطراب الهضم والبدانة وأمراض القلب والكبد والكلى والبول السكرى وارتفاع ضغط الدم .

والصوم يقيم المجتمع الإسلامى على أساس من التواد والتراحم والتعاطف . . بكثرة الصدقة فيه نتيجة الإحساس بالجوع . . وبزكاة الفطر التى تؤدى بانتهاء الصوم وهى واجبة الأداء .

أما فى النواحى الخلقية والروحية فالصيام أفضل وسيلة لغرس الأمانة فى نفوس النشء . . فالتربية الحديثة تعمد إلى طرق عملية فى تعويد الطفل الأمانة . . وليست هناك طريقة تماثل الصيام ... فهى دعوة إلى ترك الأكل والشراب . . ولا رقيب على الصائم إلا ضميره . . إن شاء أكل وإن أراد شرب . . وهو يعلم ألا أحد يراه إلا الله . . .

والصيام يخلق فى الإنسان الصبر . . والصبر تعود . . ومن تعوده قادراً . . استطاعه دائماً . . وليس أصبر من الإنسان الجائع : يرى الأكل فلا يقربه . . ويستبد به العطش . . فى يوم قائظ . . ثم يدع الماء . .

وقد أثبت العلم الحديث أن النشاط العقلى والجسدى يزداد بجوع

الجسم وأن إنتاج الفرد فى صومه أفضل من إنتاجه وقد شمله الخمول والكسل بامتلاء بطنه . .

هذا علاوة على ما فى الصوم من رياضة روحية يتقرب بها العبد من ربه مما يجعل الإنسان يحجم عن الخطأ ويكف جوارحه عن الآثام . . وصدق الله العظيم الذى أظهر فضل الصوم إذ يقول :

« وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

الحــج

« وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً »

فرضت هذه الآية الشريفة حج بيت الله ، وبذلك أصبح الحج أحد أركان الإسلام . . . وقد فرض الحج على كل مسلم بالغ عاقل حر بشرط الاستطاعة . . وهى وجود ما يكفى حجه وعودته والإنفاق على من تجب عليه نفقته حتى عودته . . وأن يكون فى صحة يستطيع معها تحمل مشقة السفر وعناء الارتحال . . وأن يأمن الطريق إلى الحج . وهكذا شأن كافة عقائد الإسلام وتكاليفه . . لا تحمل بين طياتها تعباً ولا إرهاقاً ولم تشرع إلا لخير الناس كأفراد وكمجتمع .

ولقد قرر القرآن الكريم أن فى فريضة الحج منافع للحجاج علاوة على ذكر الله وما فيها من دعوة إلى التصدق والبذل فى سبيل الفقير ، فيقول الله سبحانه فى سورة الحج :

« وَأَذِّنْ فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ » .

لقد حرص الإسلام على إقامة المجتمع الإسلامى على أخوة مترابطة . . متساندة . . متحابة . . متآلفة . . ففضل الصلاة فى جماعة لتكون وسيلة إلى الاجتماع ، ففيها يجتمع الجيرة من أهل الحى . . ودعا إلى صلاة الجمعة ففرضها إذ يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الجمعة :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » .

(سورة الجمعة : ٩)

والحج دعوة كبرى لعقد مؤتمر عالمى للمسلمين ، يباشرون فيه أمورهم ، ويحلون فيه مشكلاتهم ، ويتجاوبون به لمختلف رغبات المسلمين أينما كانوا . . .

وفى العصر الحديث نرى أن دول العالم كله تجد أنه لا مناص من عقد المؤتمرات التى تضم طوائف البلاد المتماثلة فى سياستها أو مشاربها أو اتجاهاتها الاقتصادية لتقوية دول هذا المؤتمر . . وأصبحت الدول

تتسابق إلى ضم أكبر عدد من حلفائها إلى جانبها . . وظهرت التكتلات الدولية . . وأخذت صوراً وأسماء ولكنها ما زالت وستظل دون مؤتمر الإسلام الذى دعا إليه الله بالحج . . فهذه مئات الألوف من كل بقاع العالم فى شتى الدول وعديد البلاد فيهم كل ألوان البشر من أبيض وأسمر وأسود وأصفر . . ويمثلون كافة الاتجاهات السياسية . . فنهم من روسيا ؛ ومنهم من إنجلترا ، وآخرون من فرنسا ، وإيطاليا ، والشرق الأوسط ، والأقصى ، ومن جزر المحيط . . أى محيط وكل محيط . . تربطهم عقيدة واحدة . . هى الإسلام . . ويجمعهم الهدف الموحد . . حج بيت الله الحرام . . مندوبون عن كافة الدول ومختلف الشعوب يجتمعون مرة كل عام . . تجمعهم رابطة أقوى من القومية . . أو المنفعة الاقتصادية . . أو الجوار . . ألا وهى رابطة الدين . . . فما أجله من مؤتمر ! وما أكمله من اجتماع !

وفى كل مؤتمر عالمى تدعو إليه الدول . . كثيراً ما يكون مكان عقد الاجتماع موضع دراسة طويلة .. ومحط أطماع . . وغالباً ما يتخذون مكاناً وسطاً محايداً . . ويختارون فيه بيتاً آمناً . . فهل يتوفر فى أى مكان – مهما كان مبلغ أمانه – ما يتوفر فى بيت الاجتماع الإسلامى . . بيت الله الحرام . حيث لا أمان بعده . . وحيث حرم على الحاج أى إيذاء حتى صيد الحيوان . . بل حتى تنفيره أو إزعاجه ؟ والحج هو الاجتماع الوحيد – بين كل الاجتماعات فى العالم أيًّا كان لونها .. أو هدفها . . أو مكانها – الذى يسوده الأمن المطلق وسكينة النفس وهدوؤها . . فلا قتال . . ولا جدال . . ولا ضرب ولا سب . . فهو

اجتماع فى مكان حرام وفى وقت حرام . . إذ يقول الله فى سورة البقرة:

« ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ » .

ويختلف مؤتمر الحج عن أى مؤتمر من المؤتمرات العالمية فى أغراضه .. فإن الدول لا تستطيع أن تعقد مؤتمراً إلا لغرض واحد أو هدف مقصود . . فإذا تعدى الغرض المحدد كان لا بد من دعوة إلى مؤتمر غيره يضم دولا أخرى . . فإن المؤتمر السياسى يضم دولا ذات سياسة واحدة بهدف معين . والمؤتمر الاقتصادى يضم الدول التى يتفق اقتصادها مع الغرض من المؤتمر . . والمؤتمر العسكرى يضم دولا ترتبط بتحالف عسكرى وينظمها هدف حربى واحد . . وقلما تجتمع دول مؤتمر اقتصادى مثلا فى مؤتمر عسكرى . . فالدولة التى تتفق مع غيرها فى سياستها قد لا تتماثل معها فى نظامها الاقتصادى . . وإن تشابهت معها فيه فقد لا تتفق معها فى نوع الحكم فيها . . ولم نسمع عن مؤتمر أيًّا كان فى أى زمان . . كان هدفه سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا .. فى حين أن الحج هو ذلك المؤتمر إذ يهدف إلى النظر فى كل مايشمل دول الإسلام من سياسة واقتصاد واجتماع وثقافة . .

وينفرد اجتماع الحج بميزة أخرى عن غيره من أى اجتماع آخر . . ألا وهى انعقاده دوريًّا . . مرة كل عام . . فى وقت معين . . فالمؤتمرات والأحلاف . . أيًّا كان نوعها وهدفها من يوم أن قامت الدنيا تجتمع ثم تنفض إلى غير اجتماع . . وقد تجتمع أكثر من مرة إذا

ما دعت الحاجة الماسة إلى ذلك . . ولكن لا بد من أن تنتهى الرابطة التى تدعو إلى الاجتماع يوماً . . إما بتغيير سياسة إحدى الحكومات من أطراف المؤتمر . . أو انشقاق إحدى دول الاجتماع . . أو انتهاء الغرض من الاجتماع . . أو عدم إمكان الوصول إلى اتفاق فى الاجتماع . . إلى غير ذلك من الأسباب التى شاهدها العالم فى مؤتمراته..فى حين أن الحج من عشرات المئات من السنين ينعقد دوريا فى كل عام وفى تاريخ محدد .. هو شهر ذى الحجة من كل عام حيث يقف الحجاج بعرفات فى التاسع منه.. وبذلك فإن هذا الانعقاد الدورى لمؤتمر الحج يكفل إظهار التطور فى أحوال المسلمين فى كافة أنحاء العالم . . ويجعل المسلمين دائماً على بينة من كل أمورهم . . مهما باعدت بينهم الأمصار وفصلتهم الأقطار . . هذا هدف من ضمن ما هدف إليه الإسلام بالحج. . .

والعلم الحديث قد أوضح — ضمن ما أوضحه — ما لأركان الحج من أهداف . .

فأول أركان الحج الإحرام . . وعند وصول الإنسان إلى مكانه عليه أن يقوم بنظافة جسمه وأعضائه وملابسه .. فيغتسل ويقلم أظافره ويقص شاربه وينظف شعر رأسه ولحيته .. ثم لا يرتدى ما كان عليه من ثياب .. بل يلبس ثياب الإحرام وهى ثياب بيضاء ليست مخيطة يرتديها الحاج ويتزر بها .

ولعل ما يقوم به المرء فى إحرامه هو خير وسيلة للوقاية ضد انتشار الأمراض خلال هذا الاجتماع الذى يضم الملايين الوافدة من كافة أنحاء العالم . . وبالرغم من اجتماع الحجيج عشرات المئات من المرات من

يوم أن فرض الإسلام الحج ، لم يكن هذا الاجتماع سبباً فى انتشار مرض أيًّا كان ..ولم تتسبب عنه أمراض وبائية إطلاقاً . . فى حين نرى انتشار الأمراض وفتكها فى اجتماع الجماعات التى تقل فى عددها آلاف المرات عن الحجيج . . والتى غالباً ما تكون من جهات واحدة . . أو على الأكثر من جهات متقاربة . . ويقيناً ليس من سبب لوقاية الحجاج فى اجتماعهم – بعد إرادة الله سبحانه وتعالى – إلا الإحرام . . .

فإزالة الشعر وقص الأظافر وتسريح الرأس وغسل الجسم يعتبر تنظيفاً عامًّا لكل ما قد يكون على الجسم من ميكروبات وجراثيم ، واستبدال ملابس ليس فيها زوايا وأركان وليس بها ما قد يكون مكاناً لحشرة فيما بين غرز الخيط بالملابس التى قد يكون بها ميكروبات – كل ذلك يمنع منعاً باتًّا انتشار الحشرات التى تنقل الأمراض الخطيرة والتى يتسبب عنها انتشار الوباء . .

والإحرام قطعاً أفضل من كافة الوسائل التى تتخذها الدول فى حماية الاجتماعات التى تحرص فيها على عدم انتشار المرض . . كرش المحاليل المطهرة ودوام تنظيف الأمكنة . . وهذا إن كان يجدى ، فجدواه دون جدوى غسل أجسام المجتمعين وتغيير ملابسهم ومحاربة وجود أية حشرات عالقة بهم . . فالوقاية من وجود الحشرات أجدى من مقاومتها . . ولم يستن فى الحج غسل الإحرام فقط بل إن من المفضل تكرار الاغتسال . . فمن الاغتسالات المستحبة المسنونة فى الحج ، غير غسل الإحرام : الاغتسال لدخول مكة ثم لطواف القدوم ثم للوقوف بعرفة ثم للوقوف بمزدلفة ثم ثلاثة أغسال لرمى الجمار الثلاث ثم لطواف الوداع . ..أى تسعة

اغتسالات تقى الحجاج تماماً من المرض وانتشاره . .

وركن الحج الثانى هو الطواف . وأنواعه ثلاثة : طواف القدوم لدخول مكة ، وطواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفة ، وطواف الوداع قبل مغادرة مكة . . وشروط الطواف هى شروط الصلاة من طهارة البدن والثياب وستر العورة والوضوء . . وليس كالطواف فى إشعار النفس بوصول الإنسان إلى بيت الله . . . حيث يطوف به محيياً . . . ولذا فإن الأدعية المأثورة التى تقال فى الطواف بعد السلام والتحية وذكر الله، هى طلب المغفرة والعفو والعافية . . والعون على الطاعة . . والبعد عن المعصية .

والجانب الروحى . . للحج . . يتمثل فيما يبدأ به الإنسان إذا ما نوى الحج . . . بالتوبة إلى الله توبة تامة . . ورد المظالم . . وقضاء الديون . . حتى لا يكون لأحد عنده مال . . أو مظلمة . . . أو مندمة . . وبالتحرز فى ماله ، فلا يصحب معه إلا الحلال الطيب الذى عرف من أين جاءه ، واطمأن به عليه . . . فقد عزم على زيارة بيت الله . . . فلا يكون معه . . إلا الروح الطاهرة . . . والقلب المؤمن والنفس التى تهفو إلى المغفرة . . والمال الذى لن يسأل عنه فيخزيه . . .

والطواف يعتبر طلباً عملياً من الإنسان لله لقبوله فى رحمته ولإدخاله بين الذاكرين الطائفين الركع السجود . كذلك رمى الجمرات التى تعتبر وسيلة حركية لإشعار النفس بأن المرء قد ألقى بذنوبه كما يلقى هذه الجمرات بعيداً عن نفسه وأنه برجم الشيطان ، قد عاد مجرداً عن الأوزار متحللا من الذنوب معرضاً عن نزوات الشيطان . .

والركن التالى للحج بعد الطواف السعى بين الصفا والمروة . . ولنعلم حكمته يجب أن نعرف أول سعى كان بينهما . . فسارة زوجة سيدنا إبراهيم كانت عقيماً ، فلما وجدت تلهف زوجها على الولد طلبت منه أن يدخل بجاريتها هاجر لعلها تنجب له من يؤنس وحدتهم . . فلما أنجبت هاجر سيدنا إسماعيل وجدت سارة انتعاش نفس إبراهيم به وحبه له وبالتالى لأمه . . فخافت سارة على نفسها وعلى زوجها من أن يهجرها . . ودبت الغيرة فى قلبها فكررت على زوجها الطلب أن يقصى إسماعيل وأمه عنهما إلى أقصى القفار فأذعن لإرادتها واستجاب لطلبها وأخذ هاجر وإسماعيل إلى أن طال به المسير وبعدت بهم الشقة . . فتركهما فى مكان أجرد . . صحراء حيث لا ماء ولا غذاء ولا كائن ولا ديار ؟ . .

استعطفته هاجر لها ولطفلها وانتحبت ما شاء لها النحيب والبكاء . . وكأن الله قد أوحى إلى إبراهيم بما فعله فتركها وابنها إلى رحمة الله . . صابراً على البلاء وليس بعد ذلك من بلاء . . ولم يزد على دعاء ربه قائلا :
« رَبَّنَا إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

امتثلت هاجر لقضاء الله وصبرت إلى أن انتهى زادها ونضب الماء معها . . فجف لبنها وعطش وليدها فارتاعت . . وأهاجها صراخ طفلها

جوعاً وعطشاً . . فهرولت تبحث عن غذاء أو ماء . . فى كل مكان . . حتّى وصلت إلى جبل بمكة هو الصفا . . فلم تجد عنده بغيتها . . وهيأ لها وهمها أن الماء على جبل آخر . . هو المروة . . فأسرعت إليه لتجده السراب . . ثم قفلت راجعة إلى الصفا حيث خدعها السراب مرة أخرى فهرولت إلى المروة . . وهكذا سعت سبعة أشواط . . تبلل الصحراء بدمعها . . وتردد جنبات الجبال صراخها وهى لا تنى عن سؤال الله والضراعة له . . . وزاد صراخ الطفل . . ضارباً الأرض برجليه الهزيلتين الضعيفتين فانفجر الماء من الحجر تحت قدم الطفل . . وإذ بملك يملأ الأفق لهاجر ويقول لها: زمى .. زمى .. أى حَوّطى الماء بما يجعله عيناً . وسميت العين : زمزم . . .

وبنبع الماء حوم الطير فعرف منه المرتحلون والضاربون فى البيد وجود ماء مجاور . . فتقاطروا على العين يقيمون حولها وأصبحت الصحراء عامرة والبلقع آمناً . .

وزار إبراهيم ولده أكثر من مرة . . حتّى أصبح إسماعيل رجلا . . فأقبل إبراهيم لا ليزوره ولكن ليقول له إن الله أمرنى أن أبنى هنا بيتاً له . . وسارا إلى المكان . . وبقوة من الله وعزيمة الإيمان ضربا فى الأرض يحفران ورفعا قواعد بيت الرحمن وصدق الله العظيم الذى يقول :

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . رَبَّنَا واْجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا

أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

هذا أول سعى بين الصفا والمروة . . . فإذا ما ذكر الإنسان قصة هذا السعى .. أفلا يعمر قلبه بالإيمان بالله الذى لابد متبع العسر بيسر .. وأنه لا بد بعد الضيق من فرج . . وأن رحمة الله قريب من المتقين . وإذا ما ذكر الإنسان قصة هذا السعى أفلا يعتاد الصبر على البلاء . . بعد صبر إبراهيم على فراق ابنه . . الذى أنجبه وهو عجوز . . وصبر هاجر على وليدها وقد أقفرت الصحراء حولهما حيث لا شيء إلا رحمة الله . . . وهل بعد ذلك يشغل المرء أمر مهما كان هذا الأمر . . قضاؤه أو تأخيره .. نجاحه أو إخفاقه ... أو لا يسلم الإنسان بعد ذلك أمره إلى الله . . الذى أنبع الماء من الحجر الصلد ليسقى طفلا وأمه بعد أن فقدا الأمل إلا من رحمته . . فسقاهما ، وجعل من مكانهما قبلة تتعلق بها الأنظار فى كل مكان وتهفو إليها القلوب فى كل زمان . . .

وبعد السعى يأتى الوقوف بعرفة . . إذ يقف الحجاج جميعاً بعرفات يوم عرفة إلى غروب الشمس فإذا غربت خرجوا . . ولم يسن لعرفة دعاء منصوص أو ذكر مخصوص . . بل على كل أن يجتهد فى الدعاء والتهليل والتكبير ما شاء الله له وكيف شاء . . .

ووقوف الحجاج فى عرفات فى وقت واحد بلباس واحد وعلى شكل واحد فيه من العبر ومن التوجيه لما لا يكفيه إلا المجلدات . . .

فليس من سبيل إلى إظهار المساواة التامة بين خلق الله بصورة قاطعة عملية إلا هذه الوقفة التى يتساوى فيها الغنى والفقير . . الوالى وعامله . .

صاحب الأرض وأجيره . . المصرى والصينى . . والإنجليزى والقوقازى . . والهندى والأفريقى .. جميعهم عباد الله .. تجردوا من الحرير والذهب .. وتساووا فى الرداء الأبيض والإزار . . هؤلاء جمعتهم رحمة الله فى بيت الله متساوين.. أفضلهم أقربهم إلى الله .. ولابدّ أنهم بهذه الوقفة متذاكرون يوم الحشر . . . وكيف أنهم سيحشرون حفاة عراة . . كما بدأهم الله قد عادوا . . لا صولجان . . ولا قوة . . ولا مال ولا بنون . . عادوا صفر اليدين إلا من قلوبهم . . ليقضوا حسابهم . . .

وهم بهذه الحالة لابد متذكرون أن كل ما يجمعه المرء من مال وغيره سيتجرد عنه وأن الباقيات الصالحات خير لهم . . وسيذكرون فى هذه الوقفة الموت الذى سيساوى بينهم مساواة الحج لهم . . فهل بعد ذلك إلى الذنب عودة ؟ . . . وإلى المعصية رجوع ؟ . . .

وبعد انتهاء مناسك الحج يحلق الرجل شعر رأسه أو يقصره ولو إلى أقل قدر ممكن فيحل له ما كان محرماً عليه فى الإحرام . . إلا النساء . . وهذا إشعار للنفس بأنه كان فى أثناء الإحرام متجرداً من كل نقيصة . . وإنها لحركة عملية لتمكين شعيرة الحج فى نفس الحاج . . وبطواف الوداع حول بيت الله الحرام . . للتسليم . . والتحية . . يكون قد انتهى المرء من حجه . . .

هذه بعض أهداف الحج التى أوضحها التقدم العلمى فى العصر الحديث . . علاوة على ما فى الحج من منافع أخرى . . فهو وسيلة التعارف بين الشعوب فى مختلف أنحاء العالم فى أطهر مكان ولأسمى غرض فى الوجود . . عبادة الله سبحانه وتعالى . . وما ينتج عن هذا التعارف

من أواصر المودة والألفة وتنمية التبادل التجارى . . وزيادة الحركة الاقتصادية بين الدول والشعوب . .

وللحج نواح روحية . . لا يحس بها إلا من وفقه الله إلى أدائه . . فهذه البقاع النائية التى شهدت مولد الإسلام . . وهذه الأودية التى تردد فيها التكبير لله والتهليل له . . خالصاً من كل شرك أو زيف . . وهذه الجبال التى شهدت نصر الإسلام والمسلمين وهم فئة قليلة . . يقاتلون جيوشاً عارمة من المشركين والكفار بإذن الله . . وهذه البطاح الطاهرة التى طهرها الله سبحانه وتعالى من الأصنام والأزلام بالدعوة إلى الإسلام . .

وهذا جبل حراء . . جبل النور حيث كان الرسول الكريم يتأمل ويتعبد . . .

وهذه بدر . . حيث التقى المسلمون على قلتهم . . بالمشركين على كثرتهم . . فى صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان . . وحيث ألقى الرسول بحفنة من الحصباء فى وجوه المشركين صائحاً : « شاهت الوجوه . . . شاهت الوجوه . . » وحيث اتجه إلى القبلة يدعو ربه مخلصاً له الدعاء : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . . اللهم فنصرك الذى وعدتنى . . اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد . . » . . . وكان نصراً للمسلمين مؤزراً وعزيزاً . .

وهذه أحد . . حيث شغلت المسلمين الغنيمة فدارت عليهم الدائرة . . حتى أشيع بينهم أن محمداً قد قتل . . فعظمت البلية . . وزادت الكارثة . . حتى صار المسلمون يقتلون بعضهم بعضاً وهم لا يشعرون لما هم فيه من الاضطراب والفزع . . وهناك حيث شجت

رباعية الرسول العزيز وعطر أديم الصحراء بدمه الطاهر . . وحيث كانت أم عمارة الأنصارية خارجة لتسقى المسلمين فألقت سقاءها واستلت من على الأرض سيفاً تذود به عن الرسول .. الذى ما إن رآه المسلمون حتى عادوا إلى القتال مكبرين .. الله أكبر . . الله أكبر . . حتى تقهقر المشركون . . .

وهذا جبل الرحمة .. حيث خطب الرسول . .

مهابط الرحمات .. ومبعث الأنوار . .

ألا لا إله إلا الله وحده .. صدق وعده . . ونصر عبده . . وأعز جنده . . وهزم الأحزاب وحده . . . آيات بينات على أن نصر الإسلام كان من الله .. وشواهد ناطقات على طهر المكان وقدسية البيت . . وكل من حج وأخلص النية لله واتجه بقلبه إليه .. لابد أن يتجلى لقلبه ويرى بعينه . . الآية والبينة . . .

ولعل الآية التى يراها كل إنسان — حتى أصبحت مبعث إعجاب وتعجب كل من رآها ، وحيث كتب عنها المسلمون وغيرهم — تلك الألوف من طيور الحمام التى تحط فى الحرم وتأكل من كل يد وتحط على كل كتف . . هذه الألوف من الحمام تحوم حول الكعبة الشريفة . . ولا تحط عليها إطلاقاً ، فلم تحط واحدة عليها من يوم أن قامت الكعبة حتى اليوم والغد . . ولم يشاهد فى الحرم ولا بجوار الكعبة أية فضلة من فضلات هذا الحمام .. فإنه إن أراد أن يخرج فضلاته فبعيداً . . وبعيداً عن الكعبة . . فماذا يا ترى يرى هذا الحمام بعينه .. ولا نراه ؟ ؟

وماذا يمنعه من ذلك غير قدرة خالقه . . .

هل بعد ذلك من روحانية تملأ القلب ، وتهز مشاعره ، أكثر من ذلك ؟ ! وهل الحج بعد ذلك فى حاجة إلى إيضاح لما هدف إليه الإسلام به ؟ ؟ . . .

* * *

هذه بعض الأضواء على عقائد الإسلام وتكاليفه . . . وهى تثبت بما لا يقبل الشك أو الجدل أنها لم تشرع إلا لخير الفرد . . ومصلحة المجتمع . . .

فهل دعا الإسلام إلى الإيمان بالله . . . لأن الله فى حاجة إلى هذا الإيمان ؟

وهل تزيد الصلاة والصيام من ملك الله شيئاً ؟

والزكاة والحج . . أشرعت لحاجة الله إليها ؟

ألا إنما هى رحمة الله بعباده . . . التى فرض من أجلها الإسلام . . يوم أن أراد أن يتم نعمته على عباده :

« ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا »

هذا هو الإسلام وهذه لمحة خاطفة سريعة . . . أليس فيه ما يكفل سعادة الفرد .. ويحقق خير المجتمع . . . فى الدنيا والآخرة ؟ . . . أولا يحق أن يقال عنه إنه دين كل عصر قديم وحديث ؟ ؟ . . . .

« وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ » .

(سورة آل عمران : ٨٥)

« رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ » .

(سورة يوسف : ١٠١)

صدق الله العظيم

مراجع الكتاب

تفصيل آيات القرآن الحكيم	لجول لابوم ترجمة الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي
قصص القرآن	للأساتذة محمد أحمد جاد المولى ، محمد أبو الفضل إبراهيم . على محمد البجاوى ، السيد شحاته
إحياء علوم الدين	للإمام أبى حامد الغزالى
صحيح البخارى	لأبى عبد الله محمد البخارى
الطبقات الكبرى	لابن سعد
حياة محمد	للمرحوم الدكتور محمد حسين هيكل
الرسول : حياة محمد	تأليف ر.ف . بودلى، ترجمة الأستاذين محمد محمد فرج وعبد الحميدالسحار
محمد رسول الله	لمولاى محمد على ترجمة الأستاذين مصطفى فهمى وعبد الحميد السحار
نساء محمد	للأستاذة سنية قراعة
لماذا أومن بالقرآن ومحمد	للأستاذ هلال على هلال

فجر الإسلام	للمرحوم أحمد أمين
الجواهر فى تفسير القرآن الكريم	للمرحوم طنطاوى جوهرى
العقائد	للأستاذ عمر عنايت
نور الإيمان	للأستاذ منير خضير
من ماضى الإسلام وحاضره	للأستاذين محمود النواوى ، ومحمد عبد المنعم خفاجى
الإسلام والنظام العالمى الجديد	لمولاى محمد على ترجمة الأستاذ أحمد السحار
الإسلام وحقوق الإنسان	للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى
أركان الإسلام الخمسة	للمرحوم الدكتور يحيى الدرديرى
الإسلام والطب الحديث	للمرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل
طعامنا	للدكتور محمد زكى شافعى
الإنسان ذلك المجهول	للدكتور ألكسيس كاريل
العلاج الروحى	للدكتور أدون فردريك باورز ترجمة الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير
دع القلق وابدأ الحياة	لديل كارنيجى وترجمة الأستاذ عبد المنعم الزيادى
لا تقتل نفسك	لبيتر ثانيكرون
متع نفسك	لجيلوردر هوزر ترجمة الدكتور محمد فتحى

فهرس



تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨

دار المعارف بمصر

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة